

تاريخ الحرب الكبرى شعراً

أسعد خليل داغر



تاريخ الحرب الكبرى شعرًا

تأليف
أسعد خليل داغر



تاريخ الحرب الكبرى شعراً

أسعد خليل داغر

الناشر مؤسسة هنداوي

المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شبيث ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة

تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +

البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org

الموقع الإلكتروني: <https://www.hindawi.org>

إن مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ليلي يسري

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ٢٧٨٢ ٥

صدر هذا الكتاب عام ١٩١٩.

صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٢.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف مُرخصة بموجب رخصة المشاع الإبداعي: نَسْبُ المَصْنَف، الإصدار ٤.٠. جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي خاضعة للملكية العامة.

المحتويات

٩	مقدمة
١٥	١- مُنْجَاةُ النَّاظِمِ لِنَفْسِهِ
١٧	٢- رُدُّ نَفْسِهِ عَلَيْهِ
١٩	٣- وَصْفُ الْحَرْبِ
٢١	٤- بَدَاءَةُ شَبُوبِهَا
	٥- إِعْلَانُ أَلْمَانِيَا الْحَرْبِ عَلَى رُوسِيَا وَفَرَنْسَا وَشَهْرُ بَرِيْطَانِيَا الْعَظْمَى الْحَرْبِ
٢٣	على أَلْمَانِيَا
٢٥	٦- غَزْوَةُ الْأَلْمَانِ لِلْبَلْجِيكِ
٢٧	٧- شَهْرُ الْجَبَلِ الْأَسْوَدِ الْحَرْبِ عَلَى النَّمْسَا، وَالْيَابَانِ عَلَى أَلْمَانِيَا
٢٩	٨- وَصْفُ مَعْرَكَةِ الْمَارْنِ الْأُولَى
٣٣	٩- دُخُولُ تَرْكِيَا فِي الْحَرْبِ
٣٥	١٠- هُجُومُ الْأَتْرَاكِ عَلَى قَنَاةِ السُّوَيْسِ
٣٧	١١- اقْتِحَامُ الدَّرْدَنِيلِ
٣٩	١٢- وَصْفُ غَزْوَةِ غَلِيْبُولِي
٤١	١٣- وَصْفُ مَعَارِكِ رُوسِيَا
٤٥	١٤- دُخُولُ إِيْطَالِيَا فِي الْحَرْبِ
٤٧	١٥- غَزْوَةُ بُلْغَارِيَا وَالنَّمْسَا لِسَرْبِيَا وَالْجَبَلِ الْأَسْوَدِ
٥١	١٦- وَصْفُ مَعَارِكِ الْعِرَاقِ
٥٥	١٧- غَزْوَةُ رُوسِيَا لِإِزْمِيْنِيَّةِ
٥٧	١٨- وَصْفُ مَعْرَكَةِ فَرْدُونِ

- ٦١ - ١٩ معارك سيناء
- ٦٥ - ٢٠ وصف الهجوم الروسي الثاني على النمسا
- ٦٧ - ٢١ وصف دخول رومانيا في الحرب وانخراطها
- ٧١ - ٢٢ ثورة الحجاز
- ٧٥ - ٢٣ تدويع العراق وفتح بغداد
- ٧٩ - ٢٤ دخول ولايات أميركا المتحدة في الحرب
- ٨٥ - ٢٥ الثورة الروسية
- ٩١ - ٢٦ تحية لبنان
- ٩٣ - ٢٧ مناجاة لبنان
- ٩٥ - ٢٨ زحف الجيش البريطاني من جنوب غزة إلى شمال القدس
- ٩٩ - ٢٩ التحنان إلى لبنان
- ١٠٣ - ٣٠ هجوم ألمانيا والنمسا على إيطاليا
- ١٠٧ - ٣١ مصر والمصريون
- ١١٣ - ٣٢ الهجوم الألماني الأخير في فرنسا
- ١١٩ - ٣٣ فتح سورية
- ١٢٥ - ٣٤ هجوم الحلفاء الأخير في البلقان
- ١٣١ - ٣٥ هجوم الحلفاء الأخير في فرنسا ونهاية الحرب
- ١٣٧ - ٣٦ الخاتمة في نهاية الحرب

وهو قصائد تتضمن أشهر المعارك التي نشبت في هذه الحرب،
مع مقدمة في رزاياها وفضائلها ونتائجها.

مقدمة

في ٢٨ يونيو سنة ١٩١٤ أطلق تلميذ سربي اسمه «برنسيب» الرصاص في سراجيفو من ولاية البوسنة على الأرشيديوق فرنز فردينند وليّ عهد النمسا وزوجته فقتلّهما، وكانت هذه الجناية الفظيعة أشبه شيء بجذوة نارٍ كبيرة أُلْقِيَتْ في مخزن بارود العالم فانفجر، وشبّت هذه الحرب الكبرى، وطما سيلها الجارف فطمّ على ألمانيا والنمسا من جانب وروسيا وبريطانيا العظمى وفرنسا والبلجيك والسرب والجبل الأسود من جانبٍ آخر. ثمّ تناولَ الدولُ الأخرى فانضمّت اليابان وإيطاليا والبرتغال ورومانيا والولايات المتحدة الأمريكية والصين والبرازيل والحجاز واليونان وغيرها^١ إلى الحلفاء، وانحازت تركيا وبلغاريا إلى ألمانيا والنمسا، وأصبح معظم أوروبا وجانب كبير من آسيا وأفريقيا وجزائر البحار في مارجٍ من نارٍ تلتهم الملايين من الرّجال، وعشرات ألوف الملايين من المال، وتمدُّ على البلدان مطمار الخراب والدمار، وتورد السكان مواردَ الهلاك والبوار. وتجرّع الأحياء غُصَصَ التُّكل والتّرمل واليُتم، وتذيقهم أمرَ كنوس البؤس والشقاء، وتكتنف العالم كله بشدائد تُشيب الوليد، وتذيب الحديد، وترتعد من شدة هولها الأرض والسماء.

وكنْتُ منذ يوم شُبوبها قد وجهتُ إليها ما استطعته من العناية والاهتمام، فواظبتُ على مُطالعة أنبائها البرقيّة، وتصفّح أخبارها في أكثر الجرائد العربية وبعض الصحف الإنكليزية، وراجعتُ كلَّ ما جاء عنها في المفاوضات الرسمية التي سبقت نشوبها،

^١ من الحكومات التي شهرت الحرب على ألمانيا وحليفاتها كوبا وغواتيمالا وهندوراس وليبيريا ونيكارغوى وبناما وسيام، أمّا التي اقتصرَتْ على قطع العلاقات السياسية فهي بوليفيا وإكوادور وبيرو وأرغواي.

واستقرت جميع الأسباب التي أفصت إلى وقوعها، وتحرّيت البحث المدقق عن اليد التي أدارت رحاها، وأحضأت لظاها، وأغرقت الدنيا بطوفان رزاياها.

وفي أثناء مطالعتي لأنبائها، ووقوفي على تفاصيل معاركها، لم أفتر عن التأمل في اتّساع ساحاتها وميادينها، وتنوّع عددها وأسلحتها، وتقلّب أطوارها، وتغيّر أشكالها، والتفكير فيما اقتضته كلّ يوم من النفقات الكبيرة والضحايا الكثيرة، وتصوّر ما ستجلبه على العالم من الويلات والمحن.

ولم يزل ذلك دأبي منذ وقود نارها إلى يوم خمود أوارها، وكان أهم ما رسخ منها في ذهني وأثر في نفسي ثلاثة أمور:

الأمر الأول: امتيازها عمّا سبقها من الحروب بأشياء كثيرة، أهمّها كثرة المتحاربين واتّساع الميادين، وتنوّع المعارك والأسلحة؛ فإنّ الجيوش التي خاضت غمارها لم يقلّ عددها عن خمسين مليوناً،^٢ إن لم يزد، وقد تعدّدت ساحاتها في جهات مختلفة من أوروبا وآسيا وأفريقيا، ولم تنحصر معاركها فيما نشب منها في البرّ، بل تعدّته إلى مواقع الأساطيل الكبرى في عرض البحار، ومكافحات أسراب الطيارات في أعالي الجوّ، وغارات الغواصات في أعماق اللّجج؛ أي إنها ثارت في الأرض والهواء وعلى الماء وتحت الماء، واستخدم فيها من العدد والأسلحة كلّ ما استنبطه العلم واخترعه العقل البشري للتعجيل في الفتك والإزهاق وتعميم التدمير والتخريب، كالدافع السريعة الرشاشة التي كانت تحصد صفوف الجحافل حصداً المناجل للسنابل، والمدافع الضخمة التي كثيراً ما كانت مقذوفاتها تدكّ الجبال وتقوّض أمنع الحصون وأمتن المعازل، أضف إليها السوائل المحرّقة، والغازات الخانقة، والأرواح السامة، والألغام على اختلاف أنواعها، والدبّابات (التانكس) وغيرها من عدد قتل النفوس وآلات اجتياح الأرواح. ولا تنس الخنادق التي احتفرت وأنشئت في أكثر الميادين وأودعت أقوى ما استطاع العقل اختراعه من ذرائع الدفاع ووسائل التحصين؛ ولذلك سميت حرب الخنادق.

ومما امتازت به العناية الفائقة التي بذلها الأطباء والجراحيون، وأعضاء جمعيات الصليب الأحمر، للمحافظة على صحة الجيوش ومعالجة مرضاهم وجرحاهم، ووقايتهم

^٢ في بعض الإحصاءات الأخيرة أنّ مجموع المجنّدين من جميع الدول التي اشتركت في هذه الحرب بلغ ستين مليوناً، والقُتل عشرة ملايين، والجرحى والمشوّهين ثلاثين مليوناً.

من الأوبئة التي كانت تنتشر في الحروب الماضية بين المتحاربين، وتفتك بهم أشد من فتك السيوف والبندقيات والمدافع، وشدة إتقان وسائل المنابأة والاستشراق، والإسراع في التعبئة والنقل والتسليح والتموين، وقطع الأشجار، وتمهيد الأرض، وإنشاء الجسور، ومد سلك الحديد، وخطوط التلغراف والتلفون، ونصب الأسلاك الشائكة، وغير ذلك من الأعمال الشاقة التي قامت بها فرق العمال في جميع الميادين وراء خطوط النار. وكان لفرق العمال المصريين أكبر نصيب منها في معارك سيناء وفلسطين وسورية والبلقان وفرنسا وغيرها من الميادين.

والأمر الثاني: تلك المعايير الفظيعة والمعايير الشنيعة، التي شاع — لسوء الحظ — ارتكابها في هذه الحرب، كإرسال الطائرات لتشن الغارات على المدن غير الحصينة، وتلقي قنابلها على النساء والشيوخ والأولاد، وتؤدي بحياة كثيرين منهم بلا إثم ولا حرج.^٢ وإطلاق الغواصات لنسف سفن الاستشفاء الحاملة المرضى والجرحى، وإغراق البواخر التجارية الغاصّة بالركاب والمسافرين من غير المحاربين، ومعاملة الأسرى بما لا مزيد عليه من العنف والقساوة، وتكليفهم القيام بأشق الأعمال، والإسراف في إهانتهم وتعذيبهم وتعريضهم للجوع والعُزّي والبرد، وغير ذلك؛ ممّا أعان على تفشي الأمراض الويلة بينهم وكثرة الوفيات منهم.

فإن هذه المعرّات وأشباهها أُضيفت إلى ما نتج عن الحرب نفسها من الضحايا بين المتحاربين، وما تركته في الأرض من آثار الخراب والدمار، فأوجبت شدة استفظاع الناس لها، وشغلّتهم عن الإعجاب بما أتاه أبطالها من آيات البأس والبسالة والتفاني في حب الأوطان والدّود عن ذمارها، وكادت تُنسيهم ذكر الذين اشتُهِروا فيها بالمروءة والعطف والحنان والرفق بالإنسان أيّا كان، وتأمين غير المحاربين، ومداواة مرضى الأسرى وجرحاهم، والعناية بأصحائهم، وعمل كلّ ما تتمجّد به الإنسانية حتى في الحرب التي ليست من الإنسانية في شيء.

^٢ ولقد شاهدنا بعيوننا أثر هذه المخزّيات في القاهرة يوم ١٣ نوفمبر سنة ١٩١٦، حين حلّقت في جوّها طائرة ألمانية، وألقّت على سكّانها عدة قنابل، فقتلت منهم ٢١ وجرحت ٢٤.

^٤ كان في ألمانيا والنمسا مليوناً أسير روسي مات نصفهم، أي مليون أسير، وفي تقرير مندوبي جمعية الصليب الأحمر الدولية عن أولئك الأسرى أنهم غُوملوا شرّ معاملة.

والأمر الثالث: أنَّ هذه الحرب مع كلِّ ما جنَّته من المصائب التي يصعب وصف مقدارها، بل قد يتعذَّر تصوُّر هولها؛ لم تخلُ من ظواهر تؤذِن منذ الآن بتوقُّع أفضل النتائج وأكبر المنافع لجميع الشعوب والأمم، وتُبشِّر بنَشْر خير النِّعم من طيِّ شرِّ النِّقم. فقد رأيناها انجلَّت عن ثلِّ عروش الاستبداد وخلع أنيار الاستعباد عن رقاب العباد، وهدم صروح الاستتثار بالسلطة الفردية، وتوسيع نطاق الحكومات النيابية، وأسفرت عن مشروع جمعية الأمم لواضع أساسه ورافع نبراسه الدكتور ولسن رئيس جمهورية الولايات المتحدة الأمريكية.

فهو بإجماع الناس كافَّة أعظم مشروع وُضع لخير الإنسان وصلاح العمران، وقطع دابر الشرِّ والعدوان. وإذا قُدِّر له ما يستحقُّه من النجاح، وعمَّ الجري على قواعده، والعمل بموجب مبادئه؛ قضى على سياسة الفتح والتدويخ، وأحمد أنفاس الرُّوح العسكرية من الأرض، واستأصل شأفة الطموح إلى الغزوات وشنُّ الغارات، ووقى العالم شرور الحروب، وأفاد في تحسين أحوال العمال بزيادة أجورهم وتقليل ساعات عملهم، وأنال الشعوب الصغيرة حقوقها المهضومة، بحيث يستقلُّ القادر منها بإدارة شئونه، ويُعطى القاصرُ حقَّ اختيار الدولة التي يُريدها لتعنى به وتُشرف عليه حتى يبلغ أشده ويصير قادراً على تولي أمره بنفسه.

ومن نتائجها التي لا يصحُّ السكوت عنها أنَّ فنَّ الطيران بلغ فيها من التقدُّم والارتقاء مبلغاً أدهش العالم، فقد كان قبل نشوبها ضعيف النشأة، صغير الشأن، قليل الشيوخ، ضيق المجال، ولكنه ما لبث أنَّ أخذَ يكبرُ فيها، وينمو ويقوى ويشتدُّ ويتسع ويمتدُّ، حتى صار له أكبر شأن في المنابأة والاستطلاع، والمهاجمة والمطاردة، وكان من أمضى الأسلحة التي استظهر بها الحلفاء على الألمان، واضطروهم إلى الإذعان والتسليم، ثمَّ انصرف رجاله إلى إعداد المركبات الهوائية الكبيرة لحمل البريد ونقل الركاب، وقطع آلاف الأميال في بضعة أيام، والأمل أنه عمَّا قليل يُعين على تقصير المسافات المتراصة، وتذليل المسالك المتعادية، فيسهل وصل الشرق بالغرب والشمال بالجنوب، ولا يبقى من هذا القَبيل حاجة في نفس يعقوب.^٥

^٥ وقُبِّلَ الشُّروع في طبع هذا التاريخ بَشْرُنَا الأنباء البرقية في ١٥ يونيو سنة ١٩١٩ بأنَّ الكبتن ألكوك والملازم برون قطعاً الأتلنك من أميركا إلى إرلندا على طيَّارة إنكليزية في مرحلة واحدة، وقد جازا هذه

فإذا صَحَّتْ هذه الأحلام — والأمل كلُّ الأمل أنها تصحُّ وتَصْدُق — كانت أكبر عوض عن خسارة لا تُعوَّض، وجاز القول إنَّ الحرب كَفَّرَتْ عن بعض ما جَنَتْ، وإنَّ الدماء الغزيرة التي أهرقت، والأموال الكثيرة التي أُنفقت، والخراب الذي عمَّ، والشقاء الذي طَمَأ سَيْلَهُ وطمَّ؛ إنَّ هذه كلّها بُذِلَتْ فِدَى، ولم تذهب سُدى.

هذه الأمور على الخصوص هاجتُ بي الشعر، فنظمتُ القصائد الآتية في نشوب الحرب ووصف أشهر معاركها، وصَدَّرْتُ وُصِفَ كل معركة منها بذكر تاريخ حدوثها وخلاصة ما يهمُّ القارئ أن يعرفه عنها. وفي أول الأمر جَرِيتُ في حَلَبَةِ النظم شوطاً بعيداً في قصيدة على بحر واحد، بلغتْ أبياتها ٢٢١، أتيتُ فيها على وُصِف بضع عشرة معركة، ثمَّ عدَلْتُ عن هذا الالتزام، وتنقَّلتُ في النظم من قصيدة إلى تخميس إلى موشح على أبحرٍ مختلفة، وقوافٍ متنوِّعة؛ توسَّعتُ لي في النظم، ووقايةً للقارئ من ملل مطالعة شعر طويل على وتيرة واحدة.

وقد نظمتُ في سلك هذه القصائد موشَّحين وقصيدة في مناجاة لبنان وتحيته والحنين إليه، ووصفتُ فيها ما عاناه أهله من المصائب التي صبَّها الأتراك على سورية عموماً ولبنان خصوصاً.

وأدمجتُ فيها قصيدة «مصر والمصريون»؛ لأنَّ مصر العزيزة اشتركتُ في هذه الحرب اشتراكاً فعلياً بمالها ورجالها، وكانت منذ نشوبها إلى الآن — كما كانت لِمَن أمَّها من الضيفان في سالف الأزمان — ملجأً أميناً لمنكوبي الحرب عموماً والسوريين منهم خصوصاً، فإليها رحلوا من كلِّ صوبٍ وحذب، وعند حكومتها السلطانية وأهلها الأجواد نزلوا على السَّعة والرحب؛ ولذلك وجب أن يَقْتَرَن ذكر هذه الحرب بذكرهم. ويُخْتَم الخِلاص منها بعد حمد الله بشكرهم، وعرفان الجميل أجمل عرفان، وذكر اليد فرضَّ على لسان كلِّ إنسان.

ولا أكتُم القارئ أنني كنتُ منذ نشوب الحرب واثقاً كلِّ الثقة بفوز الحلفاء، على رغم ظواهر تقدُّم الألمان واحتمال انتصارهم، حتى إنني في هجومهم الأخير وعبورهم لنهر المارن صرَّحتُ بثَّقَتِي هذه في قصيدة نظمْتُها في ١٣ يوليو سنة ١٩١٨ لتُدْرَج في

المسافة التي تبلغ نحو ألفي ميل في ١٥ ساعة و٥٧ دقيقة، ونالا جائزة جريدة الديلي ميل وقدرها عشرة آلاف جنيه.

مجلة المرأة المصورة في اليوم التالي؛ أي يوم عيد الجمهورية الفرنسية، فقلتُ مخاطباً الحلفاء:

ما دامتِ الحريةُّ الغرضَ الذي	ترمون وهي المطلبُ المنشودُ
فالله ناصركم على أعدائكم	ومُزيل دولة ظلمهم ومُبيدُ
عمّا قليل تَضْرِبون صفوفهم	ضرباً لشدّته الجبال تَمِيدُ
فَيُشْمَرُونَ ذِيولهم وعيونهم	بيضُ تناوحها وجوهُ سودُ
ويَرَوْنَ أنَّ الكيد في نَحْرِ الألى	كادوا وإن طال المدى مردودُ

وفي ١٨ منه؛ أي بعد أربعة أيام من تاريخ نشرها، شرع الحلفاء يضربون تلك الضربة القاضية، وما لبث أن صار قُوْزُهم عامّاً شاملاً، وبات هلال انتصارهم بدرّاً كاملاً.

أسعد خليل داغر

القاهرة، في ١٤ يناير سنة ١٩١٩

الفصل الأول

مُنَاجَاةُ النَّازِمِ لِنَفْسِهِ

أَعْرَنِي مِنْكَ يَا هَارُوتُ^١ سَحْرًا
أَفِضْهُ عَلَيَّ إِلَهَامًا يَدَاوِي
وَأَوْحِ بِهِ إِلَيَّ وَدِّعْهُ يَجْرِي
أَتَى حِينَ عَلَيَّ صَمْتُ فِيهِ
وَقُلْتُ لَهَا الْقَرِيضُ تَنْكَبِيهِ
وَحَبْلُ الشَّعْرِ غَلَّكَ فَاقْطَعِيهِ
أَلَسْتُ تَرَيْنَ رَبَعَ الْقَوْلِ أَقْوَى
وَبَاتَ بَيَانُهُ عَيًّا وَأَمَسْتُ
وَقَدْ أَغْمَضْتُ عَيْنَ الْحَصْرِ عَمْدًا
لَأَنَّ الْحَصَرَ بِالتَّسْكِينِ أَوْفَى
مَضَى زَمْنُ التَّنَافُسِ بِالْقَوَافِي
إِذَنْ فَاسْلِيهِ تَارِكَةً هَوَاهُ

فَإِنَّ بِهِ يَرَاعِي الْيَوْمَ أُخْرَى
جَمُودَ قَرِيحَتِي فَتَسِيلُ بَحْرًا
عَلَى قَلَمِي وَيَقْطُرُ مِنْهُ قَطْرًا
وَذُدْتُ عَنِ الْكَلَامِ النَّفْسَ قَسْرًا
وَعَنَهُ أَجْمَلِي يَا نَفْسُ صَبْرًا
بِتَاتًا وَابْدَلِي بِالْوَصْلِ هَجْرًا
وَأَصْبَحَ نُزْلُهُ الْمَعْمُورُ قَفْرًا
فَصَاحَتُهُ كَمَا تَذَرِينَ حَصْرًا^٢
وَلَسْتُ بِسَائِلٍ لِي عَنْهُ عُذْرًا
مَنْ التَّحْرِيكَ بِالْمَعْنَى وَأَجْرَى
وَحُلُّو الشَّعْرِ بِالْأَفْوَاهِ مُرًّا
لِمَفْتُونٍ عَلَى غَيِّ أَصْرًا

^١ في الأثر أَنَّ هَارُوتَ وَمَارُوتَ كَانَا مَلَكَيْنِ فِي بَابِلَ يُعْلِمَانِ السَّحْرَ.

^٢ الحصر بالتحريك العي، وقد غُلَّ التسكين في البيتين التاليين.

الفصل الثاني

ردُّ نفسه عليه

تَحْمَلُ ما يكون عليَّ وقراً^١
كوت ولو سكتُ لمتَّ قهراً
لأعلم باستحالته وأذرى
لما صوّبت فيه قطُّ فِكراً
ويسكت يُستخفُّ به ويُزرى
ويهدر طالباً للنطق مجرى
تظلُّ على سكوتك مستمراً
شديداً قلقل الأرضين طُراً؟!
محيّاها فأدجن واكفهرًا؟!
فجلجل من جراه واقشعراً
يُكرّر مرةً ويُعاد أخرى
وكلُّ فمٍ به كِلَفٌ ومُغرى
وإن تكتب فليس سواه يُقرا
به فيذرُّه في الأرض ذراً

فقالَتْ لي رويدَكَ لا تَسْمُني
أفي وقتٍ كهذا تقتضيني السـ
تحرّضني عليه وأنت مني
ولو مثلي افتركت به قليلاً
ومن يكُ يستطيع اليوم قولاً
أأسكتُ والجمادُ يئزُّ حولي
وأنت؟ وأنت من لحمٍ ودمٍ^٢
أُتسكِتني وفي الدنيا اضطرابُ
ألم ترَّ هول هذي الحرب غشى
وناب جمادها فعراه دعرُ
ألم تسمع حديث الناس عنه
صداه مُردّدٌ في كل نادٍ
فإن تعرض فليس سواه يُشرى
وسلك البرق لا يهتزُّ إلا

^١ حملاً ثقيلاً.

^٢ لغة في دم مخففة.

وإنَّ يَكُ كُلُّ هَذَا غَيْرِ كَافٍ	لرفع القَيْدِ عَنْكَ فَلَسْتَ حَرًّا
وإلا فاجلُ ذهنك يصفُ واشحدُ	يراعك يَمْضِ مِنْصِلَتًا مُكِرًّا
وخطُّ به على القرطاسِ شعراً	يزفُّ إلى نُهى القُرَّاءِ سِحْرًا

الفصل الثالث

وصف الحرب

سمعتُ مقالَ نفسي فاعتراني
وبعد تأملي فيما ارتأته
وأيقظتُ القريحةَ من كراها
وسالتُ واليراعَ يمدُّ منها
عن الحرب التي دارتُ رهاها
تدفَّقَ سيلُها فطما عليهم
وشبَّ ضرامُها فشوى البرايا
ألَمَّتْ بالوليد فشاب هولاً
ولستُ أرى لها وصفاً سوى ما
كأنَّ الغيبَ صوَّرها لديه
ولو كبرى حروبِ الأرضِ عُدَّتْ

ذهولٌ حرتُ فيه وضقتُ صدراً
شهدتُ لها بصحته مِقْراً
فلبَّتني ولي لم تَعِصِ أمراً
ويرقم وَحْيَها سطرًا فسطراً
فصار لها سوادُ الناسِ بُراً
وأصبح غامراً للأرضِ غمراً
كما تشوي الأتاتينُ الأجرًا
ولامستِ الحديدُ فذاب صهراً
زهيراً قاله وكفاه فخراً
فأحكم وصفَها فزواه شعراً
لما حُسِبَتْ لديها غيرَ صُغرى

^١ هو زهير بن أبي سُلمى، صاحب المعلّقة المشهورة التي يصفُ فيها الحرب أبلغ وصف بقوله:

وما الحربُ إلّا ما علمتُم وذقّتُم
متى تبعثوها تبعثوها ذميمةً
وتتضرى إذا أضرىتموها فتتضرم
وتلقح كشافاً ثم تُنتج فتتئم

وما هو عنها بالحديث المرجم
فتعركم عرك الرّحى بثفالها

الفصل الرابع

بداءة شوبها

في ٢٣ يوليو سنة ١٩١٤ أرسلت حكومة النمسا بلاغاً إلى الحكومة السربية تطلب فيها أن تترضاها عن مقتل وليّ عهدا، وتشترط لذلك عشرة شروط بسطتها في البلاغ، وأمهلتها ٤٨ ساعة. وعلى رغم توسُّط روسيا وبريطانيا العظمى وفرنسا وإيطاليا، وسعيهن في حمل النمسا على حذف الشرط المتعلّق بتعرّضها لشنّون السرب الداخلية؛ ظلّت بإيعاز ألمانيا مُصرّة على كلّ ما طلبته، وإنّ لم تُجبها السرب إليه شهرت عليها الحرب في ٢٨ يوليو، وأخذت تُطلق مدافعها على بلغراد من عبر الدانوب.

أثار غبارها غليوم عمداً	وأسعر نارها ختلاً وغدرا
تأهّب في الخفاء فكان يرخي	على استعداده للحرب سترا
ويُبدى حبه للسلم جهراً	ويحضأ مارچ الهيجاء سراً
وزين خوضها لمُحالفه	وأغراهم بها خبتاً ومكرا
وأغواهم كما إبليس قدماً	بصورة حيّة حواء غراً
وصير مقتل ابن حليفه في	سراجيفو لها سبباً وعذرا
وقال لدولة النمسا أغيري	على السرب التي وترتك ^١ وترا
فلبّته وهبّت من فيناً	تُذيق بني بلغراد الأمراً
وهذا كان مبتدأ الرزايا	ومنه شرّها استشرى ^٢ وأكرى

^١ جنّت عليه جناية.

^٢ تفاقم وزاد.

الفصل الخامس

إعلان ألمانيا الحرب على روسيا وفرنسا وشهر بريطانيا العظمى الحرب على ألمانيا

لما أُبلِّغَ سفيرُ روسيا في فينَّا حكومتَه أَنَّ النمسا رفضتْ توسُّطَ الدولِ العظمى، وسَيَّرتْ جيوشَها على حدودِ روسيا وسربيا، وأنَّ ألمانيا تجدُّ في الاستعدادِ الحربي؛ أصدرتْ روسيا أمرَها بالتعبئة، فأرسلتْ إليها ألمانيا في ٣١ يوليو بلاغًا تطلب فيه إبلاغها في ١٢ ساعة أنها (أي روسيا) تكفُّ عن التعبئة، وفي أولِ أغسطس شهرتِ الحربَ عليها، وفي ٣ منه شهرتها على فرنسا، واخترقتْ حياذَ البلجيك، وعدَّ وزيرُها بتمن هفلج معاهدةَ الاحتفاظ بحياذِ البلجيك «قصاصة ورق»، واضطرَّ بريطانيا أن تشهر الحربَ على ألمانيا.

أواخرُ شهرِ تَمُوزِ أرثنا	بداءةَ أزمَةٍ ستدوم دهرًا
ففيها جحفل النمسا تعدَّى	حدودِ السربِ مُهتاجًا مُضرى
وأصلى روسيا غليوم نار الـ	ووغى ليشد من جوزيف أزرا
وكرَّ بجيشه يغزو فرنسا	من البلجيك مخترقًا ممرًا
تعمد أن يُفاجئها بضرب	ينال به على الحلفاء نصرًا
فأصلَّته فرنس لظى دفاع	رأه من لظى سَقَرٍ أحرًا
وحينئذٍ به زعقتْ بريطًا	نيا العظمى وقد وسعته زجرا
ورابع ليلةٍ من شهرِ آبٍ	عليه أزمعتْ للحرب شهرًا
وعبأتِ الأساطيل اللواتي	بَسَطْنَ على مُحَيَّا البحرِ برًا
شقَّقْنَ عُبابَه عرضًا وطولًا	بواخرِ ماخراتٍ فيه مخرا
رواس كالجبال وهن إذ ما	يَسْرَنَ فَمِنْ وَمِيضِ البرقِ أجرى

تاریخ الحرب الكبرى شعراً

دردنطاهن زأزُنَ حتى أشبَنَ مفارق الألمان نعرأ
فلولاهن لم نَرَ ما رأينا وعدَّ الحق أهل البطل صفرا
فهنَّ هدمنَّ ما الألمان شادوا وهنَّ لنصرهم حوَّلنَ كسرا

الفصل السادس

غزوة الألمان للبلجيك

في ٣ أغسطس سنة ١٩١٤ اجتاز الألمان حدود البلجيك، وهاجموا حصون لياج، وفي السادس منه دمّروا ثلاثة منها، وفي اليوم التالي دخلوها، وفي ١٥ منه أسقطوا بقية حصونها، وفي ١٧ منه انتقلت حكومة البلجيك من بروكسل إلى إنفرس، وفي ٢٠ منه دخل الألمان بروكسل، ثمّ دوّخوا نامور، واكتسحوا معظم بلاد البلجيك، وغادروها هي وأهلها في شرّ حال.

يفوح فيملاً الأفواه عطرا	على البلجيك ما نُكرتُ سلامٌ
ويشرح منه إذ يتلوه صدرا	يُشْنَفُ إذَنْ سامِعُه صداه
بنفحته من البلجيك أخرى	سلامٌ لا أرى في الأرض طرّاً
فخارُ أقام والشرف استقرّاً	ومن أولى به منها وفيها الـ
تنال بذكرها مدحاً وشكراً	أتت في حفظها لهما فعلاً
تدوّن كلّها سطرّاً فسطرا	فعلاً في سجل الدهر أضحت
بلاد يظلّ حيّاً مستمراً	وفيها ذكر أهل الأرض هذي الـ

* * *

بأعلى ما به الأمجاد تُشرى	بلاد في سبيل المجد ضحّت
رائها دون ما صانته قدرا	بأرواح وإن كرّمت وعزّت
خولَ إلى فرنسا كي يَكِرّاً	أراد الخائن الغدارُ منها الد
بأن يرتدّ عنها لا يمرّاً	ورام بها المرور فأنذرتّه
لها وعلى المرور بها مُصرّاً	ولمّا أن رآته غير صاغٍ

تصدَّتْ غير خائفةٍ لصدِّ الـ مُغِير تُذيقُه منها الأمرًا
وذي نامور شاهدةٌ لها بالـ جهاد وقد تكون لياجُ أدرى

* * *

بلادُ كالجنان غدت مثار الـ وغي ولبؤسها صارتُ مقرًّا
وباتتْ كلُّها قَفْرًا يبابًا^١ وكانت في رُبي العمران زهرا
وإقليم كغارِ الليث أضحتْ دماءُ بنيهِ فيه تُراق هدرا
تحملُّ من يد الألمان ما لو عرا صخرًا لكان أذاب صخرا
ومطمار^٢ الفناء امتدَّ فيه وغادره من الفتیان صفرا
وأوسع أهله الباقيين ضيقًا وتنكيلاً وإرهاقًا وقهرا
وجرَّ وراءه تُكَلًّا ويُتمًّا وترميلاً لهم وهلمَّ جرًّا
فهذا نادبُ لأبٍ وعمِّ وذي زوجًا وتلك ابناً وصهرا
ويا ويل الظلوم فسوف يلقى عقابًا عبرةً يبقى وذكرى!

^١ خرابًا.

^٢ خيط البناء.

الفصل السابع

شهر الجبل الأسود الحرب على النمسا، واليابان على ألمانيا

في ٧ أغسطس شهرت حكومة الجبل الأسود الحرب على النمسا، وانضمت إلى السرب، فصال هذان الجيشان الصغيران على النمسيين صولة الأسود، وأذاقا جيوشهم غير مرة مرارة الانكسار، وفي ٢٣ منه شهرت اليابان الحرب على ألمانيا، وهاجمت مستعمرتها كياوشو في الصين، وفي ١٣ سبتمبر احتل اليابانيون محطتها، وفي ٢٣ منه جاءتهم نجدة من البريطانيين، وفي ٣١ أكتوبر شددوا إطلاق المدافع على تسنغ تاو، فأسكتوا قلاعها واستولوا عليها وعلى كياوشو.

وحيث رأى كُماة ستين أن الـ	عدو على بلاد السرب كراً
أجابوا قبل أن يدعوا وهبوا	وفاء بالعهود لها وبراً
وصاحوا: يا لثأر السرب! أكبر	به ممن عليه جار ثأراً!
وكرؤوا مع حليفهم أسوداً	ترج الأرض زمجرة وزأراً
وبنت الشمس ^١ قامت تقتفي في	أقاصي الشرق للحلفاء إثراً
وللألمان جاحت من كياوشو	وعقد وجودهم نثرته نثراً
كذا حمي الوطيس وعمّ ضنك الـ	كريهة واستحال اليسر عسراً
وغول الحرب أودى ^٢ بالملايين	من من قتلى ومن جرحى وأسرى

^١ اليابان.

^٢ ذهب.

الفصل الثامن

وصف معركة المارن الأولى

ظلَّ الجيشان الفرنسي والبريطاني يتقهقران أمام الجيوش الألمانية في فرنسا، حتى بلغا نهر المارن في ٥ سبتمبر، وكانت الحكومة الفرنسية قد انتقلت في ٣ منه من باريس إلى بوردو، وفي اليوم السادس منه رأى المارشال جوفر أنه قد حان وقت الهجوم الذي أراده، فأمر جيوشه بالانطباع على الألمان الذين أسرف قائدهم الجنرال فون كلوك في التغرير بهم، غير حاسب حساباً للجيش الفرنسي الجديد الذي أعدّه الجنرال جاليني^١ قرب باريس، واستهان بالضربة التي كالهها الجنرال فوش لقلب الجيش الألماني في لافير شامبنواز؛ ولذلك لم يَسعِ الألمانين الثباتُ على هذا الهجوم العظيم، فتقهقروا إلى الأين حيث شرعوا في حرب الخنادق.

وكان مجموع الجيوش الألمانية في هذه المعركة ١٤٥٠٠٠٠، وقوادهم فون كلوك، وفون بيلوف، وفون هوزن، ودوق ورتمبرج، وولي عهد ألمانيا، وجيوش فرنسا نحو ٧٠٠٠٠٠، وقوادها فوش، وكاستلتو، وسرايل، ومانوري، ودسبيري، ولانجله، وقائدهم العام المارشال جوفر، والجيوش البريطانية مائة ألف وقوادهم هايچ، وسمث دوريان، وأللنبي، وقائدهم العام المارشال فرنش.

أَلَا تَكَلَّمْتُكَ أُمُّكَ شَهْرَ آبَ	ولو نقصتْ شهورُ العامِ شهراً
على الحلفاء يا ذا الشؤم بين الشـ	هور جميعها كنتِ الأشرّاً
ففيك اجتاحتِ البلجيك غولاً	وديسَ حياتُها رغماً وقسراً
وعدَّ وزير غليوم العهود الـ	تي قُطعتْ على القرطاس جبراً

^١ توفّي هذا الرجل العظيم في ٢٧ مايو سنة ١٩١٦.

وفيك على فرنسا انقضَّ جيش الـ
فسام شمالها الشرقيّ خسفًا
هناك ارتدَّ جحفلُ جفر عنها
وجيش فرنش معه أدار نحو الذـ
قليلاً كان في التعداد حتى
ولكنْ نَوْدُه عن مونس يومًا
أدارًا في الدفاع عن الصِّيَاصِي^٢
وفي وجهِ المهاجمِ ثَمَّ سَلًا
ولولا مَيِّزَةُ استعداده من
قضاها حاشدًا من كل نوع
أراك بذاك الاستعدادِ فوزًا
وهذا الفوز أطمعَه بنصر
فمدَّ يديه والجيشانِ كَرًّا
وعن باريس صدَّاهُ بسُدَّ
بدرعِ نسجها من كلِ قِرْمٍ
وشدَّ عليه منطقةً سداها
وصابُ حِمَامِه استحلى عزيزًا
فكَّرَ وخَلَقَه أَسَدُ هَـصُورٍ
وأقدم كالآتِيٍّ وشقَّ زحف الـ
وأمطر ساقَةَ الألمانِ رُمِيًّا
وطعنًا يخرقُ اللّاماتِ نترًا

غزاة مدوّخًا وثبًا وطفرا
ودنَّسَ تربها المعدود تَبْرًا
يذودُ مدافعًا شِبْرًا فشِبْرًا
جأ ظهرًا ووَلَّى الموت صدرا
لِقِلَّتِه به غليوم أزرى
أرى الدنيا قليلَ العَدِّ كُثْرًا
معاركٍ مُسْعِرَاتِ النارِ تَنْتَرِي
مناصلَ ماضياتِ الحَدِّ بُتْرًا
سنيين لأكرهاهُ أن يفرًا
تمسُّ إليه حاج الحرب وفرا
على الحُلْفا وأحرَزَ منه نَزْرًا
يمدُّ به إلى باريس جسرا
عليه كاسِرَيْنِ يديه كسرا
من الفولانِ أَصْلَبَ بل أَقْرًا
على حَقْوِيهِ إِتْبَ^٣ العزمِ زَرًّا
ولِحمتها: اقْتَحِمَ لا تخشَ أمرا
وحلو العيش بالذلِّ استمرًا
تقدّمَ سابقًا أَسَدًا هِرْبْرًا
عدوٌّ وصال بطاشًا زبرًا
سديدًا مقصد الأهداف سَعرا
وضربًا يفلق الهامات هِبْرًا^٤

* * *

^٢ الحصون.

^٣ ثوب.

^٤ القوي الشديد.

^٥ يُقال: رمي سحر، وطعن نتر، وضرب هبر؛ أي شديد أليم، والمقصد المصيب القاتل، واللامات: الدروع.

أولئك هم حُمَاتُكَ يَا عروس الـ
سلمتِ بهم ومعكِ الحق نال الـ
سلمتِ بهم أَجْلٌ والنَّسْرُ^٦ هِيضَتْ
سلمتِ وقد سُررتِ وكل قلبٍ
إِذْنٌ أَخْلِقَ بِنَفْسِكَ أَنْ تَمَلِّي
وَأَنْ تُحْيِيَ الَّذِينَ فِدَاكَ ماتوا
فيوم «المرن» خَلَّدَ مَا أَتَاهُ
وَأَبْقَاهُ لَنَا وَلِكُلِّ جِيلٍ

ببلاد ومطلع المجد الأغرَّ
خلاص فكان ذلك خير بُشْرَى
قوادِمُهُ وَعُرْفُ الدَّيْكَ^٧ طَرًّا
هوى الحرية استَصْبَاهُ سُرًّا
بهم طيبًا وعينكِ أَنْ تَقْرَأَ
ولا تَنْسَيَ لَهُمْ مَا عَشْتِ زِكْرًا
بنوك بفضل «جليني» و«جفرا»
سيأتي بعدنا في الأرض ذخرا

^٦ النسْر شعار ألمانيا.

^٧ الديك شعار فرنسا.

الفصل التاسع

دخول تركيا في الحرب

قضى الاتحاديون القابضون على زمام السلطة الحقيقية في تركيا ثلاثة أشهر يتحفزون لجرّ دولتهم إلى الحرب تلبيةً لدعوة ألمانيا، وعلى رغم تكرار نصائح الحلفاء لهم بالتزام الحياد واجتناء منافعها المادية والأدبية، فعبئوا الجيوش، وأعدوا المعدات بحجة الاستعداد لدفع الطوارئ، وفي ٢٩ أكتوبر غزت بوارجهم أوديسا وغيرها من ثغور روسيا على البحر الأسود، واضطروا روسيا أن تشهر الحرب عليهم في أول نوفمبر، وما لبث الباقون من الحلفاء أن حذوا حذوها، وأعلنوا الحرب على تركيا. وما أبطأ الجيش الروسي أن اجتاز التخوم التركية في إزمينية، واحتلّ بيازيد وكوبر كوي ودنا من أرضروم، ثم تراجع متقهقراً ودخل الجيش العثماني القوقاس، واحتلّ ساريكاميش وأولتي وباطوم والقارص وبلغ أردهان، ثمّ نكص مرتدّاً أمام الجيش الروسي، وقد خسر خسارةً كبيرة من رجاله ومعدّاته.

ثلاثة أشهر مرّت ونار الـ	وغي مشبوبةً برّاً وبحراً
وليلُ الحرب جنّ ^١ وطال حتى	حسبنا الموت منه اجتثّ ^٢ فجراً
وأظهر الاتحاديون فيها	رواغاً ساسة الحلفاء غراً
بهم مكروا وقالوا قد لزمنا	حياداً لا نرى منه مفراً

^١ أظلم.

^٢ اقتطع.

وإن ملنا فليس يكون إلا
 كذا قالوا. وأنور كان سرّاً
 وفي استعداده للحرب معهم
 وأقحم قومَه فيها اعتباطاً^٣
 وهاجوا الدبّ فانهمرت عليهم
 ودارت بينهم حربٌ عوانٌ
 وبيننا أنورٌ يرجو انتصاراً
 فحاق بجيشه الغازي انكسارٌ
 ودبّ إليه في القوقاس سوس الـ
 فمن لم يقض في الهيجاء منهم
 فمن ظمياً ولغِبٍ أرهقاه
 ومن لم تُرِدِه هذي البلايا

إليكم مئِلُنَا سرّاً وجهراً
 إلى الألمان ضمهم أقراً
 قضى التسعين يوماً مستمراً
 وأوغرهم على الحلفاء صدراً
 فيالقه من القوقاس همرا
 تراوح سيرُها مدّاً وجزراً
 إذا الأقدار قد رمقته شزراً
 مُريعٌ بعده لم يلق جبراً
 خطوط وعظمه أوهاه نخراً
 وسهم الرُّوس أخطأ منه نحراً
 وجوع ما استطاع عليه صبرا
 هراه الزمهريرُ فمات قرّاً^٤

^٣ من غير علة.

^٤ أوغر صدرهم أي أحماه من الغيظ.

^٥ برداً.

هجوم الأتراك على قناة السويس

وكانت الحكومة العثمانية قد بعثت بجمال باشا وزير بحريتها إلى سورية، وولّته قيادة جيوشها العامة، فأخذ يتأهب في بئر سبع للهجوم على مصر، وفي شهر يناير سنة ١٩١٥ سار جيشاً مؤلفاً من ٢٥ ألف مقاتل بقيادة الجنرال فون كروس الألماني، فاجتاز حدود شبه جزيرة سيناء عن طريق نخل، واحتلّ قطية في ٢٩ منه، واستأنف الزحف قاصداً قناة السويس، وفي ٣ فبراير بلغت طلائع الجيش المهاجم شقّة القناة الشرقية، ونشبت بينهم وبين حُماتها معركة شديدة أسفرت عن انكسار المهاجمين ورجوعهم يتعثرون بأذيال الخيبة والفشل، وقد خسروا عدداً كبيراً من القتلى والجرحى والأسرى.

أطاعوا فيه للألمان أمرا
يُسام الإنكليز أُنّى وضراً
ريق إلى بلاد الهند وُغرا
عليهم كُلُّهُ إثماً ووُزرا
وظلّ على ضلالته مُصراً
أراه في الكرى أهرام مصر
لأمنعُ من جبين اللَّيْث قطرا
على مَنْ رامها فانصاع قصرا

وممّا الاتحاديون كانوا
إِغَارَتْهُمْ على مصرٍ ففِيها
فَتَقَلَّتْ مصرُ من يَدِهِم ويمسي الط
كذا ظنُّوا، وكان الظن هذا
وأَنور في تعسُّفه تمادي
عليه الغيُّ ران ومن فروق^١
فَرام حيازَ مصرَ وإنَّ مصرًا
بظلَّ حُماتها الممدود عَزَّتْ

وعصبة أنور اشتريت بمالٍ
فباعتهم نفوساً أرهقوها
وقد ولّوا قيادتها جمالاً
وجزّها قاذفاً بالجيش عبر الـ
فلبّاهم جمالاً في غرورٍ
وزجّ بجيشه في تيه سيناء
وظلّ الجيش يطوي البيد حتى
وحاول أن يجاوزها ولكن
وغشّته القنابل من ثغور الـ
فسلّم بعضه فنجا وبعض
وباقيه أدار لمصر ظهراً

عليها من سما الألمان درّاً
فكانت أرخص السلعات سعرا
وقالوا اشطّر بها سيناء شطرا
لقناة ومصر خذها مستقراً
وشمّر للكريهة مذبذباً^٢
يُسام صدّى وإعياء وحراً
له خطّ القناة بدا فكراً
سيوف حُماتها دحرتّه دحرا
مدافع فاتحاتٍ فيه ثغرا
قتيلاً أو جريحاً ثمّ خراً
وشمّر ذيله هرباً وفرّاً

^٢ متهيباً للشر.

الفصل الحادي عشر

اقتحام الدردنيل

وكان الحلفاء قد أقرُّوا على فتح الدردنيل والبسفور عنوةً للاتصال بروسيا من الجنوب، وتسهيل إرسال العُدَد والأسلحة إليها، واستيراد الغلال منها، واتفقوا أن يهاجم قلاع الدردنيل أسطولٌ بريطاني كبير، ومعه جانبٌ من الأسطول الفرنسي، وكان الشُّروع في ذلك يوم ١٩ فبراير سنة ١٩١٥، واستؤنف يوم ٢٥ منه، وفي اليوم التالي التَّقَطَّت السفن الألغام المبتوثة في مدخل المضيق، واجتازته بعض البوارج، وجَدَّت إطلاق المدافع على حصونه، ثمَّ كَرَّرَتْ ذلك يوم ٤ مارس، وشَدَّدَتْ الضرب في ٦ و ٧ منه، وظَلَّت تتقدَّم فيه، وتدمَّر بمدافعها الضخمة البعيدة المرمى الحصون التي على جانبيه إلى يوم ١٧ منه، أصابَتْ بعض الألغام العائمة مدرَّعتين إنكليزيتين ومدرَّعة فرنسوية فأغرقتها، وكان ذلك خاتمة الهجوم.

وصرَّ٢ فأودع الآذانَ وقراءً	ويوم الدردنيل زقا١ صداه٢
ترومُ إلى فروق به ممرًا	ففيه بوارجُ الحلفاء قامتُ
تُنَاطِح منه طودًا مشمخرًا	له اقتحمتُ رواسيَ شامخات
رَمَتْه به حصَى بل كان جَمْرًا	مجانقُها رَمَتْه ولم يكن ما

١ صاح.

٢ الصدى طائر، أو هو ذَكَر البوم.

٣ صَوَّت.

٤ الوقر الثقيل، أو ذهاب السمع.

قذائف لو أَصَبْنَ صَمِيمَ صَخِرٍ
 دَكَّكَ حِصُونُهُ الْأُولَى فَبَاتَتْ
 وَأَوْغَلَتْ الدَّوَارُغُ فِيهِ تَمْشِي
 وَأَصْلَتْهَا قَنَابِلَ مَاطِرَاتٍ
 فَقَاضَتْهَا وَإِذْ كَادَتْ تُذِيقُ الـ
 أَصَابَتْ بَعْضَهَا مِتْفَجِرَاتُ
 فَكَنَّ كَكَهْرَبَاءِ يَشْعُ مِنْهَا الضـ
 وَذَلِكَ الْانْفِجَارُ حَمَى عِبُورِ الـ
 بِهِ نُسِفَتْ ثَلَاثُ مَدَرَّعَاتٍ
 وَكَانَ الْخُطْبُ لِلْحَلْفَا نَذِيرًا
 وَأَعُوذَهُمْ عَلَى الْعَسْرِ اصْطِبَارُ
 فَظَلَّ الدَّرْدَنِيلُ كَمَا نَرَاهُ
 أَصَمَّ أَدْبَنَهُ سَحَقًا وَصَهْرًا
 عَلَى عَبْرِيهِ لِلرَّائِينَ أَثَرًا^٥
 إِلَى أَبْرَاجِهِ الْوَسْطَى السَّبْطُورَى^٦
 لَهَا بِالنَّارِ وَالْفَوْلَانِ مَطْرًا
 أَخِيرَةً ضَرْبَهَا الْأَحْمَى الْأَحْرًا
 مِنَ الْأَلْغَامِ فِيهِ بُذِرْنَ بَذْرًا
 يَاءُ إِذَا لَهَا لَامَسَتْ زُرًّا
 مَضِيقٌ وَعَنْ فُرُوقِ الْخَوْفِ سَرَى
 كَمَثَلِ عَصَافَةٍ^٧ بِالرَّيْحِ تُذْرَى
 بِأَنْ وَرَاءَهُ شَرًّا شَمْرًا^٨
 وَلَوْ صَبَرُوا قَلِيلًا صَارَ يَسْرًا
 طَلِيقًا مِنْ قِيُودِ الْأَسْرِ حُرًّا

^٥ الأثر الباقي من رسم الشيء.

^٦ مشية في تبخر.

^٧ تبين.

^٨ شديدًا.

الفصل الثاني عشر

وصف غزوة غليبولي

وبعد غزوة الدردنيل عزمَتِ الحليفتان بريطانيا العظمى وفرنسا على إنزال جنودهما في شبه جزيرة غليبولي لتدويخها، والزحف منها برًّا على الآستانة. وكان الجانب الأكبر من جيش هذه الغارة بريطانيين، معظمهم من الأستراليين والنيوزيلنديين الذين كانوا قَبْلًا في مصر، وكان القائد العام الجنرال السير إيان هملتن. ففي ٢٥ أبريل سنة ١٩١٥ نزلوا في غليبولي بحماية الأسطول، وعلى رغم ما اعترض نزولهم من المصاعب الطبيعية ومقاومة الأتراك الشديدة، احتلُّوا عدة أميال من تلك الأماكن الوَعرة الحصينة، ودارتْ بينهم وبين الأتراك وَمَنْ مَعَهُم من الألمان عدة معارك شديدة في كريتيا وساري باير وإتشي بابا وخليج سوفلا وغيرها. وقد بلغتْ خسارة تركيا فيها بأقل تقدير ثلاثة أضعاف خسارة الحلفاء^١ وكانت أكبر ضربة أصابتْ جيشَهَا في هذه الحرب.

وفي ٨ ديسمبر سنة ١٩١٥ شرع الحلفاء في الجلاء عن غليبولي، فأتَمُّوه في ١٩ و ٢٠ منه؛ أي بعد ما أقاموا فيها نحو ثمانية أشهر.

إِلَيْكَ غَلِبْلِي مِنْ مِصْرَ تُطَوِّى تَحَيَّتُنَا فَتَحَكِي الْمِسْكَ نَشْرَا
وَإِنْ ضَاعَتْ^٢ فَلَا عَجَبٌ لَأَنَّا لِيَوْمِكَ حَافِظُونَ أَجَلٌ ذَكَرَى

^١ كانت خسارة الجيش البريطاني من القتلى ١٧٤٥ ضابطاً و ٢٦٤٥٥ جندياً، ومن الجرحى ٣١٤٣ ضابطاً، و ٧٤٩٥٢ جندياً، ومن المفقودين ٣٤٣ ضابطاً و ١٠٩٠١ جندي، والمجموع ١١٧٥٣٩.

^٢ فاحت.

ففيه البأس خطٌّ على روابي
تلاه الخافقان وسوف تبقى
وأياً كان قارئه نراه
يعظم من غزاة حماك شأنًا
وشتك يد الربيع فلحت روضًا
وكنت لجرأة الجيشين مجلى
كلا الجيشين أظهر فيك بأسًا
فذاك مهاجمًا جلّى اقتحامًا
أتى أبطال أنزك^٣ ما أطم الـ
فحق نيوزلندا وأستراليا
وهذا في الدفاع أرى ثباتًا
وعنك بطعنة نجلاء بكر
حماك كما أردت فعظميه

بطاحك بالدم المهراق سطرًا
له الدنيا مدى الأيام تقرأ
بترديد السلام عليك مغرى
ويرفع من حُماة حماك قدرا
وكان لروضك الجيشان زهرا
وكنت لنخبة الجيشين قبرا
كساه وزاده شرفًا وفخرا
وفاق بسالة وامتاز كرا
وورى روعًا وغشى الأرض بهرا
بهم أن تشمخا عظمًا وكبرا
أفاد الصخر كيف يكون صخرا
تلقى طعنة نجلاء بكرا
ووفى حقه مدحًا وشكرا

^٣ يراد بكلمة «أنزك» الجيش الأسترالي والنيوزيلندي.

الفصل الثالث عشر

وصف معارك روسيا

تقدّمها وتأخّرها

في أوائل شهر أغسطس سنة ١٩١٤ ولّت روسيا الغرندوق نيقولا نيقولاftش قيادة جيشها العامة، وشرّعت في هجومين أحدهما من الشمال، حيث عبر جيشها حدود بروسيا الشرقية وكسر الألمان في معركة جمبين، وطوّق مدينة كنجسبرج، ثمّ كرّ هندنبرج على الرّوس في معركة تننبرج، فحمّلهم خسارة فادحة وأكرههم على التقهقر إلى نهر نيامن، ثمّ انتصروا عليه في معركة أوغستوفو وأرجعوه إلى بروسيا الشرقية.

وهجم الرّوس من الجنوب على النمسيين، فافتتحوا لمبرج عنوة في ٣ سبتمبر سنة ١٩١٤، وواصلوا زحفهم وعبروا مضائق الكربات، فاستولّوا على تزنوفتش وياروسلاف، وطوّقوا برزميسل في ٢٢ سبتمبر، ثمّ عبروا نهر السان واجتاحوا غليسيا واحتلّوا معظم بيكوفينا، وافتتحوا برزميسل في ٢٢ مارس سنة ١٩١٥، وأسروا فيها ١٢٠ ألفًا وغنموا نحو ألف مدفع، فاستنجدت النمسا ألمانيا، فأمدّتها بجيش كبير بقيادة الجنرال مكنزن ومعه ألوف من المدافع الضخمة، وكان ذلك في ٢٨ أبريل سنة ١٩١٥، فكرّ الجيشان على الرّوس الذين كانت نخائهم قد نفدت أو كادت، فاضطّروا أن يتقهقروا ويخلّوا جميع المدن التي افتتحوها، والجيشان يطاردانهم ويُمعنان في الفتح والتدويخ حتى بلغا بنسك وفلنا في ١٩ سبتمبر ١٩١٥.

وجيش الروس كرّ على غليسيا وأرهمق مدنها فتحًا وحصرًا
طما كالسيل يجرف ما يراه يعارضه ويوقف منه مجرى

وجاز مياهاها نهراً فنهرها
معاقلها إلى التسليم جبراً
تحكّم مُمَعِنًا قَتَلًا وأسراً
أطاعت واستماحت منه عذراً
على هنغاريا أشفى^١ مُطِرًا^٢
مطيّعاً والمنى تفتّر ثغراً
مضارب تبتّر الأعناق بتراً
ونادتّها الوحي رحماك نصراً
يصدّ السيل عن أرضي ويدراً
مار عليّ ثمّ عليك جرّاً
إليها جحفلًا كالغمر مجراً^٣
وزادت فوقها أشياء أخرى
موليّة مكنزن فيه أمراً
تُقَطُّ مزابر النمسا وتُبرّى
وصار هلالُ نصرِ الروس بدراً
عن النمسا له ردعاً وزجراً
وإقدامٍ ولم يكُ منه أجراً^٤
وأوفرَ غُدَّةً وأشدَّ ظهراً
خامٌ وخلّفه النجداتُ تترى
مدافع خصمه مرّمى وقطراً

وجاح سهولها وغزا رُباها
ودكّ قلاعها واضطّرّ مَنْ في
وساق فيالق النمسا وفيهم
وراض شوامخ الكربات حتى
وأوغل في مضايقها ومنها
وبينا النصر بين يدين يجري
ومنه ساقه الأعداء تلقى
إذا النمسا بألمانيا استغاثت
أمدّيني على عجلٍ بسدّ
ولّا طمّني غرقاً وذيل الد
فلبّثتها حليفتها وأزجت
كفّته حاجه من كل شيء
به ألمانيا النمسا أغاثت
فخفّ إلى غلسيا حيث كانت
وداجي اليأس بات بها محيطاً
ففاجأ جيش إيفانوف يبغي
ولم يبسّق^٥ عليه في ثبات
ولكن كان أمنع منه درعاً
فسار تُقلّه قُطرُ الحديد الض
وتدعمه مدافع فائقات

١ أشرف.

٢ مدلاً.

٣ كبيراً.

٤ أقلام.

٥ يطلّ.

٦ أشجع.

وهذي كان إيفانوف يشكو	إلهيا كلها عوزًا وفقرا
فأصبح كلُّما ناجى مكنزن	بقنبلية يردُّ عليه عشرا
لذاك اضطرَّ أن يرتدَّ شرقًا	ويُقفلَ بابَ فتح الغرب قسرا
وفي بولندا حاول حمل ضغط الـ	عدوَّ فما استطاع عليه صبرا
فأخلاها كما أخلى غلسيا	وعاد عليه ماضي الربح خُسرا

الفصل الرابع عشر

دخول إيطاليا في الحرب

في أول مايو سنة ١٩١٥ أعلنت إيطاليا خروجها من المحالفة الثلاثية، وشهرت الحرب على النمسا، واجتاز جيشها التخوم النمسية في ٢٤ منه، وأخذ يتغلب على مصاعب يتعذر على القلم وصفها، وفي ٧ يونيو زحفت جنودها نحو تريستا، فاستولت على منفلكوني في ٩ منه، وعلى كستلنوفو في ٢٨ منه، وهاجمت غوريتزا في ٢ يوليو، وكان ذلك بداية معارك الأيسنزو الشهيرة التي تكررت فيها هجمات الإيطاليين، فأبدوا من ضروب البسالة والكر والإقدام واقتحام الأخطار، والصبر على احتمال المشقات وتذليل أكبر الصعوبات؛ ما أدهش العالم قاطبةً ونالوا على أعدائهم انتصارات باهرة.

كربات تصدّ وترتدّ	بينما أبطال الروس عن الـ
الضغط يزيد ويشتدّ	ترتدّ مدافعةً وعليها
ألمان تطول وتمتدّ	يشتدّ وفي بولندا يد الـ
ما أجدى السعي ولا الجهد	تمتدّ وفي التنكيل بها
صمصامًا أظماه الغمد	سلّ الإيطاليون لها
أن يتبعوا الحلفا جدّوا	قطعوا حبل الجرمان وفي
فذكّت واشتدّ لها وقدّ	والحرب على النمسا شهرها
بعزائم ليس لها حدّ	واجتازوا حدّ الإيسنزو
كتبت «النصر أو اللحد»	بكتائب فوق يبارقها
وطمّت لا يوقفها سدّ	كالسيل انصبّت جارفة

وتنزرت تبغي أطاماً^١
 وغدت تتوقل^٢ في قُنن^٣
 عنها ينصاع الفكر عياً
 لو حلق نسر يقصدها
 فيها المتنصت يسمع حو
 والراصد للأفلاك بلا
 هذي لتسورها الإيطا
 فرأوا قدام طلائعهم
 وجيوش النمسا زادتها
 فيكون مهاجمها هدفاً
 لمدافع تقذف من فمها
 وسيول قنابل إن لطمت
 وركام الثلج تحيط بها
 ورياح جليد حاصبة^٤
 هذي إن ينج مهاجمها
 أما الإيطاليون فما
 وإن اقتحمت أبطالهم الـ
 وعليها استولوا لم يدفع
 ولسوف تظل بسالتهم
 وبها يبقى ذكر الإيطا
 يتهيب جانبها الأسد
 ما بعد تعاليها بعد
 والطرف كليلاً يرتد
 لارتد وأعجزه القصد
 ل العرش ملائكة تشدو
 منظار يمكنه الرصد
 ليون عزائمهم شدوا
 عقبات أسهلها نجد
 تحصيناً ليس له ند
 لمخاطر أيسرها الصد
 برقاً يتخلله رعد
 طوداً يندك وينقد
 كالجيد يطوقه العقد
 برداً كرصاص يعتد
 من نار يهرأه البرد
 رهبوا الأخطار ولا ارتدوا
 أطواد قواعدها هدوا
 عنها التحصين ولا الجند
 أثراً يحتاط به المجد
 ليين يفوح له ند

^١ حصوناً.

^٢ تصعد.

^٣ رؤوس الجبال العالية.

^٤ الرياح الحاصبة هي التي تحمل التراب وتثير الحصباء أي الحصى.

غزوة بلغاريا والنمسا لسربيا والجبل الأسود

في أول أكتوبر سنة ١٩١٥ أعلنت بلغاريا انضمامها إلى ألمانيا، وشهرت الحرب على سربيا والجبل الأسود، وفيما كان الجيش السربي منصرفاً لصد غارة النمساويين والألمان من الشمال فاجأه الجيش البلغاري من ورائه من الشرق، وأعان ألمانيا والنمسا عليه، وفي ٨ أكتوبر احتل النمساويون بلغراد، وفي ٥ نوفمبر استولى البلغاريون على نيش، وفي ٣٠ منه تمّ اكتساح سربيا كلها، وفي ١٤ يناير دخل النمساويون ستنجة عاصمة الجبل الأسود.

تُطْلُ وحوْتُ الحرب يشكو من الظُّما
شَبوبًا وغطَّى سيلُها الأرض إذ طما
هواء ترقَّى غولُها فاغرا فَمَا
تسلَّقن بين الأرض والجو سُلَمًا
على معشرِ الأسماك ظلًّا مخيمًا
على الناس مجتاحًا لهم متخرمًا
ببواخرَ والركابَ حتفًا مُحتمًا
يكرُّ كمِّي السرب أضيَدَ مقدما
طرازُ وشاهُ البأس أبيضُ مُعلمًا

مضى السنة الأولى على الحرب والدِّما
وزادت سوافيها^١ هبوبًا ونارها
ولم تنحصر في البرِّ والبحر بل إلى الـ
وقد راع سُبَّاح الهواء بسوابح
وأوغل تحت الماء يبسط خوفه
ففي الجو طيَّارته تُمطر الردى
وفي اليم غواصاته وهي تورد الـ
وكان على النمسا إلى الآن لم يزل
ومعه الحليف الأسود^٢ الذي له

^١ السوافي الرياح التي تحمل الغبار وتذريه.

^٢ من الجبل الأسود.

يُذيقانها من جَفَنَةِ القهر علقَمًا
غريبًا مشوبًا بالغموض ومُفَعَمًا
تَعَقَّدَ من هذا القَبِيلِ وأبهما
وكلُّهم الإخلاصُ منها توهُمًا
إلى جانب الجرمان أمضى وأبرما
يُري الحلفا لِينًا وطُورًا تبرُّمًا
أراقوا فِدَى البلغار يحرق^٣ أُرْمًا
تجنُّبهم إِياهُ إذْ كان مجرمًا
ولم يستحلُّوا ما رأوه مُحَرَّمًا
يكن بسوى نَقْضِ المواثيق مغرمًا
لها وعليها الحربُ شَبٌّ وأضرما
دعا مستغيثًا قيصر الرُّوس مرغمًا
وعن صوفيا ارتدَّ المُغِيرُ وأحجمًا
به الحلفا فاهوا حديثًا مرجمًا
غائن لم ينفكَّ كالنار مجحمًا
على غِرَّةٍ للسرب يطلب مغنمًا
وذي عادةٍ النذل الجبان إذا رمى
ويطلب ثأرًا ظالمًا متظلمًا^٤
فكان من المجموع جيشًا عرمرمًا
كأني بها الدملوج^٥ يحتفُّ مِعْصَمًا
مهتدًا في كفِّها متثلَّمًا
وللجبلِيِّين اذْكَارًا معظَّمًا

فصالا عليها مرةً بعد مرةٍ
وقد وَقَفْتُ بلغاريا ثُمَّ موقِفًا
على الحلفاء الخُلُصَ اعتاص حلُّ ما
بها وثقوا إذْ أعلَنَتْهم حيادها
ولكنَّ فردنند كان انضمامها
قضى السنة الأولى يروغ فتارةً
وكان على الرُّوس الذين دماءهم
ولم يكُ من جُرْمٍ لهم عنده سوى
أَبَوْا وهو الباغي على السرب نصره
فزاد لهم بغضًا ولا غرَوَ فهو لم
فمن قبلُ خان السرب لم يرعَ عهده
ولم يجنِ منها غيرَ غلبٍ لأجله
فصاح بجيش السرب قَفْ فأطاعه
ولم يكف فردنندَ هذا وظنَّ ما
وفي صدره للسرب والرُّوس ثائر الض-
ورام شفاءَ الحقد بالغدر فانبرى
تغفلها مستوفزًا من ورائها
أعان عليها النمساويين واترًا
وفوقهما الألمان والتُّركُ أقبلوا
أحاطت بها هذي الجيوش جميعها
وشدُّوا عليها وطأةَ الضغط فالتوى
وخلَّد أهلُ الخافقين لقومها

^٣ يسحق أو يعضُّ.

^٤ الأَرَمُ الأضراس، أو أطراف الأصابع.

^٥ أي يظلم السرب ثم يتظلم منها.

^٦ السوار.

فما غادروا من أرضهم قيد^٧ أصبغ
أجل، خسروا لكنَّ شُهرةً بأُسهم
ستذكرهم بالشكر ألسنة الورى
فمَن عاش منهم كرموه ومَن قضى
لأعدائهم إلى ورؤوه بالذِّما
تعوّضهم ربًّا أعزَّ وأكرما
وإنَّ سكتت عنها الجمادُ تكلِّما
قضى خيرَ مأسوفٍ عليه مُرحَمًا

^٧ مقدار.

وصف معارك العراق

إلى سقوط كوت الإمارة

في أوائل شهر أكتوبر سنة ١٩١٤ سار الجيش البريطاني من بمباي في الهند بقيادة السر أرثر بارت، وعدده نحو ١٥٠٠٠ مقاتل، فبلغ العراق في ١٤ نوفمبر، واحتلَّ البصرة في ٢٢ منه، والقرنة في ٩ ديسمبر، وفي شهر مارس سنة ١٩١٥ أنجد هذا الجيش بفرقة أخرى وجعل تحت قيادة السر جون نكسن.

وفي ٣ يونيو سنة ١٩١٥ احتلَّ جيش الجنرال تونزند الشهير العمارة على دجلة، وفي ٢٥ يوليو احتلَّ جيش الجنرال كورنج الناصرية على الفرات، وفي ٢٥ سبتمبر كسر الجنرال تونزند العثمانيين في الثنيات، وفي ٢٩ منه استولى على كوت الإمارة وأسر ألفين من الجيش العثماني، وفي ٢٢ نوفمبر زحف على مدائن كسرى «كتيزيفون»، واخترق خط خنادقها الأول والثاني، وفتك بالفرقة العثمانية الخامسة والأربعين فتكًا ذريعًا، لكنَّ القائد العثماني نور الدين تلقى نجدةً كبيرةً، وكرَّ على تونزند فأكرهه على التقهقر في ليل ٢٧-٢٨ نوفمبر إلى كوت الإمارة، حيث حوَّس من ٧ ديسمبر سنة ١٩١٥ إلى ٢٩ أبريل سنة ١٩١٦ حينما اضطرَّ أن يسلم هو وجميع الباقين من جيشه.^١

^١ نحو أحد عشر ألفًا.

دارت رحى الحرب في الدنيا على عجلٍ تُجرِّعُ الناسَ صابَ اليُثمِ والتَّكَلِّ
لم يَحُلْ في الأرض منها موضع فُتلي بشرَّها الغربُ حتى الشرق غير خَلِي
أضحى ومن هولها أهلوه في شُغلٍ
وفي العراق لظاها شَبٌّ وألتهبا وسام من في العراق الويلَ والحربا
وكان أنور في إيقادها السببا لأنه ضلَّ عن نهج الهدى وأبى
إلا ركوبَ الهوى والغِيِّ والخطلِ
لم يُجدِ نصْحٌ ولا وعدٌ أفاد ولم يَخَفُ وعيداً ولم يحفلِ برغيٍّ ذَمِّم
والحرب في جانب الألمان كان عزم فزجَّ دولته في نارها وفصمَّ
عُرى مودتها مع أعظم الدولِ
على بريطانيا العظمى الكنودِ عدا وفضلها وهو بادٍ كالضحى^٢ جحدا
وظلَّ يَنزَعُ^٣ حتى أغضب الأسدَا هاج والجوُّ من تزاره ارتعدَا
ومادت الأرض وارتجت من الوجلِ
وجيشُ سلطنة البحر العراقَ نحا والبصرةَ احتلَّها والقرنة افتتحا
وملتقى الرافدين^٤ اجتاز مكتسحاً أمامه ساقَّة الأتراك فانفسحا
له التقدُّم فوق السهل والجبلِ
على الفرات توالى زحفه صُعدَا والناصرية منها نال ما قصدا
وفوق دجلة للتدويخ مدَّ يدا وفي عمارة تنزند ابتدا فغدا
من ذلك الحين يُكنَى عنه بالبطلِ
عليه نكسن أملَى كُرَّ مقتحمًا وازحف شمالاً وغامرٌ واغرَّ مغتنمًا
أجاب لا فلقد قالوا لنا قَدَمًا: «ليس المخاطرُ محمودًا ولو سلِمًا»
فهل أخالف هذا القولَ بالعملِ؟!
فقال نكسن خالفهُ ودع حذرًا يَثْنِيكَ إيجاسه عن نيلك الوطرا
واعمل بموجب قولٍ صدقه ظهرا «لن يبلغ المجدَ من لم يركب الخطرا»

^٢ الشمس.

^٣ يفسد ويوسوس.

^٤ دجلة والفرات.

فاعزم وأقدم تَفُزْ واهجم وصل تَنَلِ
أطاع تنزند أمراً فاه قائدهُ به وأقدم تحدوه مقاصدهُ
وراض دجلة حتى ذلَّ ماردهُ واشتدَّ في الفتح والتدويخ ساعدهُ
وبات فيما أتاه مضرب المثل
بعد الثنَّيات لم تبطئ وقد وهنتُ كوتُ الإمارة أن دانتُ له وَعَنَتُ
كلتاها أكسبته شهرة علنتُ وأصبحتُ وبذكري فتَّحه اقترنتُ
ملء المسامع والأفواه والمُقلِ
وجيشه كان قد أكرى° ولم يَزِدْ وسعيه في تلافي النقص لم يُفِدِ
رأه إذ ذاك محتاجاً إلى الممدِّ وغير مستكملٍ ما شاء من عددٍ
وليس في وسعه إصلاح ذا الخللِ
لكنه مع هذا كله نشطاً إلى مواصلة التدويخ ما قنطاً
على مدائن كسرى كالقضا هبطاً واحتلَّها مالِكاً أرباضها وسطاً
واستاق أجنادها كالأيُّنق الذُّلِ
وفي مدائن كسرى وهو قد عزمَا على التقدُّم للزُّوراء٦ مقتجمَا
إذا على الفور نور الدين قد هجما عليه فاضطراً أن يرتدَّ مُلتزماً
نهج الدفاع وأخذَ الخصم بالحيلِ
لكنَّ عسكر نور الدين ما رفقا في زحفه بل جرى في سيِّره عَنَقَا
وواصلَ الكَرَّ والإقدام واستبقا إلى الهجوم على تنزند مندفعاً
على جوانبه كالعارض الهَطلِ
وكان تنزند يدري حالَ عسكره وغير خافٍ عليه سرُّ مخبره
فلم يَجِدْ ثَمَّ بُدّاً من تقهقره فارتدَّ وهو يحامي عن مؤخره
مدافعاً غير هَيَّابٍ ولا وَكِلِ
كوت الإمارة فيها اضطراً أن يقفا إذ خَلَفَه كان نور الدين قد زحفا
من الجنوب عليه التفَّ منعطفاً وكوتُ شدَّ عليها الحصر مكتنفاً

٥ نَقَص.

٦ بغداد.

من كل ناحية بالبيض والأسل
وجيش تنزند فيها بات منعزلاً وشقُّه لنطاق الحصر ما سهلاً
وكان منتظراً غوثاً فما وصل وسعي أعوانه في نجده حصلاً
لكنه خاب لم ينتج سوى الفشل
وإذ رأى السعي في إمداده ذهباً سدَّى وأنَّ مَعِين الزاد قد نضباً
عنا وسلَّم مُضْطَرّاً كما طلباً خليل باشا وأخلى كوتَ وانقلباً
مع جيشه يحتويهم سور معتقل

غزوة روسيا لإرمينية

في أوائل سنة ١٩١٦ استأنفت روسيا غاراتها على تركيا في إرمينية بقيادة الجنرال ينودتش، وأمعنت جيوشها في الفتح والتدويخ، والجيش العثماني يتقهقر أمامهم بنظامٍ وبغير نظام، حتى استولوا عنوة على أرضروم في ١٥ فبراير، وافتتحوا طرابزون في ١٨ أبريل، وأرزنجان في ٢٦ يوليو، واحتلوا وان وموش وبتليس وغيرها، وحملوا الجيش العثماني خسارةً كبيرةً من القتل والأسرى والجرحى.

بأنهم غلبوا في كوت وانتصروا
أنباء بالبرق في ألمانيا نشروا
نالوا به ظفراً ما بعده ظفرُ
قتلى وعشرين ألفاً غيرها أسروا
لُجّ البحار ولم يُبقوا ولم يذروا
باقٍ لعين الألى عاثوا بها أثرُ
من قبلُ حيكَ على منوالها خبرُ!
يكن ليُجديهم نفعاً لو افتكروا
من نحو تسعين يوماً ليتهم ذكروا
لبعض ما في ربي إرمينيا خسروا

تبجّج الاتّحاديون وافتخروا
بثّوا البشائر ما بين العشائر والـ
قالوا لهم إنهم جاحوا^١ العدو وقد
وأنهم جندلوا عشرين ألف فتى
وأنهم قذفوا الباقيين منه إلى
وأنهم طهّروا أرض العراق فما
بمثل هذي الأكاذيب افتروا ولكم
فأسرّ تنزند في كوت الإمارة لم
نسوا به أو تناسوا ما أصابهم
والربح في كوت لن يلقوا به عوضاً

^١ أهلكوا واستأصلوا.

هناك كَثُرَتْ جيوش الروس تُوسِعهم
في معمعان الشتاء في أول السنة الـ
كان الهجوم عليهم بالحقيقة من
إِنَّ الطبيعة كانت في مظاهرها
تبعّت هي بالسيل الغزير وهم
وبرقها بهر الأبصار وامضه
ورعدها طبّق الأفاق قاصفه
وقُرّها^٢ هراً الترك الألى سلّموا
وانصبّ مع ثلجها لَمّا هَمَى برْدُ
كلاهما عارض طام فكان إذا
لم يُجِدِ من شائك الأسلاك ما غرزوا
لأنها برُكام الثلج قد غُمِرَتْ
والروس ساروا إلى تلك الحصون على
وكالبُزاة تنزّوا حولها وسعى
يا طالما حَذِروا هذا الهجوم وإنْ
ضاعت أرضروم منهم وهي واسطة الـ
وعندما حفظها أعياهم اعتزموا
ولم يكن ذاك في إمكانهم وعلى
ففرّ مَنْ فرّ منهم والألى عجزوا
وربما استسهل الأتراك نكبتهم
لكنّه قد تعدّى أرضروم إلى
وحاولوا حفظ بتليس ووَآنَ فما
لكنهم حسبوا استرداد كوت من الـ
ربحٌ يسيرٌ حقيزٌ عظموه وما
أنسأهم فقدّمهم إرمينيا وبه

ضرباً تطاير منه فوقهم شررُ
جديدة افتجئوا وانتابهم نعرُ
أشدّ ما عرفوا من قبلُ واختبروا
نصيرة الرُّوس حتى أنهم ظهروا
تدفّقوا بالكمة الصيد وانهمروا
والروس إذ ألهبوا بارودهم بهروا
والروس كالأسد رجّوا الأرض إذ زأروا
من قاذفات سعيّاً بردها سقرُ
عليهم كرصاص الروس منحدرُ
لم يُرِدْهم مطرٌ أودى بهم مطرُ
حول الحصون فلم يدفع به خطرُ
وشوكها بات لا يُخشى له ضررُ
كسّف^٣ الثلوج وبالأسلاك ما شعروا
حُماتها أن يصدّهم فما قدروا
جرى على غرّة لم ينفع الحذرُ
عقد الذي الروس في إرمينيا نثروا
على الفرار بما كانوا بها ادّخروا
إنقاذ أنفسهم إن أمكن اقتصروا
عنه ولم يُصمّمهم سهم الردى أسروا
لو كان في أرضروم الخطب ينحصرُ
طرابزون التي عن صونها قصرُوا
فازوا وكرّوا بأرزنجان فانكسروا
غزاة أعظم نصرٍ ساقه القدرُ
من قبله خسروا في جنبه احتقروا
تبجّح الاتحاديون وافتخروا

^٢ بردها.

^٣ قطع.

الفصل الثامن عشر

وصف معركة فردون

في ٢١ فبراير سنة ١٩١٦ هجم وليُّ عهد ألمانيا بجيش كبيرٍ على فردون من الشرق والشمال، قاصدًا أن يخترق حصونها ويشقَّ طريقًا إلى باريس، ويمحو عار التقصير الذي لحق به في معركة المارن الأولى، فقذف برجاله على حصونها الأمامية غير مبالٍ بالنار الآكلة التي كانت تتناول صفوفهم وتلتهم ألوْفهم، وقد حاز بعض انتصارات أوليَّة اشتراها بأعلى الأثمان، واحتلَّ عدة قرى وحصون وخنادق وتلال في شرق فردون وشمالها، وحُماتها البواسل ثابتون على نضاله لا يتخلَّون له عن شبرٍ من الأرض إلا بدماء العشرات والمئات من رجاله، وظلَّت الحال على هذا المنوال إلى ٢٤ أكتوبر حين انقلبوا من الدفاع إلى الهجوم، وأزعموا العدوَّ المهاجم على إخلاء عدة قرى وحصون، وترك نحو ٥ آلاف أسير، ثم جدَّوا الكرَّ عليه في ١٥ ديسمبر، فاخترقوا خطوطه، واستولوا على كثيرٍ من الخنادق والقرى والحصون، وأسروا منه نحو ١٢ ألف، وغنموا نحو ١٢٠ مدفعًا، وأرجعوا خطَّهم إلى حيث كان الخط الألماني يوم ٢٨ فبراير، وتقدَّموا في بعض الأماكن نحو الخط الألماني الأول كما كان يوم ٢٠ فبراير، وقد وضَّع خطة هذا الهجوم الجنرال نيفيل الذي تعيَّن إذ ذاك قائدًا عامًا، وأدار حركته الجنرال بتاين وقاد الجنود فيه الجنرال تنجير.

وفي ٢٠ أغسطس سنة ١٩١٧ هجم الجنرال جيوما^١ قائد الجيش الفرنسي السادس على مواقع الألمان شمال فردون، فكسره شَرَّ كسرة، وانتزع منهم ما كان باقيًا

^١ كان هذا الهجوم بحضور الجنرال (المرشال) بتاين القائد العام، وبانلفه وزير الحربية، وألبير توماس وزير الخيرية.

في أيديهم مع ٧٠٠٠ أسير، وأرجع الخط إلى ما كان عليه تقريباً في ٢٠ فبراير سنة ١٩١٦، ولم يَجُنْ وليُّ العهد من هذا الهجوم سوى خسارة لا تقل عن نصف مليون من خيرة الجنود الألمانية.

إِيَّاهُ فَرَدُونْ إِنَّنَا مُنْصَتُونَا	حَدَّثِينَا عَمَّا جَرَى حَدَّثِينَا
طَبَّقْ الْأَرْضُ ذِكْرُ مَجْدِكَ حَتَّى	رَدَّدَتْهُ أَمْلاكَ عَلَّيْنَا ^٢
ذَكَرْ مَجْدٍ فِي الْخَافَقِينَ صَدَاهُ	رَنَّ وَالْدُنْيَا تَسْتَعِيدُ الرَّنِينَ
نَشْرَتُهُ الصَّبَا فَأَنْشَأَ فِي النَّاسِ	سَ ارْتِيَا حَا وَصْبُوهُ وَحْنِينَا
ذَكَرْ مَجْدٍ مِنْ طِيَّهِ يَعِيقُ النَّشْءَ	سَ رَ فَيُزْرِي بِالْمَسْكَ مِنْ دَارِينَا
ذَكَرْ مَجْدٍ مَا دَارَ فِي الْفَمِ إِلَّا	كَبَّرَ السَّامِعُونَ وَالذَّاكِرُونَ
كَبَّرُوا كُلَّهُمْ جَهَارًا وَصَاحُوا	هَكَذَا الْمَجْدُ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونََا
فَتَّشَ الْبَاحِثُونَ فِي الْمَجْدِ تَارِيخَ	الْمَعَالِي يَسْتَنْطِقُونَ الْقُرُونَا
فَرَأَوْا فِيهِ أَنَّ مَجْدِكَ هَذَا	لَمْ يُدَوِّنْ لَهُ الرُّوَاةُ قَرِينَا
وَصَفَّهُ يُعْجِزُ الْبَلِيغَ وَيُلْقِي الرَّءْيَا	وَعُ فِي قَلْبِ أْبْرَعِ الْكَاتِبِينَا
نَتَمَلَّى جَمَالَهُ مَا بَقِينَا	وَتَذَكَّرْنَا يَوْمَ الْمِيْمُونَا
ذَلِكَ الْيَوْمِ سَوْفَ يُحَفِّظُ عِيدًا	لِخَلَاصِ الدُّنْيَا مِنَ الظَّالِمِينَا
فِيهِ أَبْطَالُكُ الْحُمَاةِ الصَّنَادِيدِ	سَدَّ انْبَرَوْا لِلدَّفَاعِ مَسْتَبْسِلِينَا
لَمْ يَخْصُوا دِفَاعَهُمْ بِكَ بَلْ هُمْ	دَافَعُوا عَنْ حُرِيَةِ الْعَالَمِينَا ^٣
وَقَفُوا لِلْغُزَاةِ وَقْفَةً آسَا	دِ أَمَامَ الْعَرِينِ تَحْمِي الْعَرِينَا

* * *

^٢ جمع عليٍّ: لأعلى الجنة.

^٣ هذا ما قلته وإصفاً عظيمةً مجدِ فرنسا في دفاعها عن حرية العالمين في معركة فردون، وهذا بعض ما قاله بعد ذلك بنحو ثلاث سنوات المستر لويد جورج كبير وزراء بريطانيا العظمى، حين زار ساحة القتال في فردون في ٢٠ يونيو سنة ١٩١٩ من خطبة في حصن فو أحد حصون فردون: «إنَّ تاريخ فرنسا مُقَمَّمٌ بالعظائم والأعمال المجيدة، ولكنَّ أعظم أمجادها هو دفاعها عن فردون. هذه هي فرنسا المجيدة؛ فرنسا الباسلة؛ فرنسا التي يقطر الدم من جروحها؛ فرنسا الظافرة؛ فأنا أشرب نخب مجد الرجال الذين جُنِدُوا دفاعاً عن حرية العالم.»

حرب فردونُ قمتِ سداً متيناً
هم فلم تَقْوِ أَنْ تَمُدَّ اليمينَا
رُغْتَ ضرباً حتى قطعتِ الوتينَا^٤
ها ومنها لم يَلْقَ إِلَّا سكونَا
حمانٌ ولَّوْا في المرنِ منهزمينَا
عهدها فيها خزيًا وعارًا وهونَا
مرنٌ إذْ هَجَّتْ في حشاه الشجونَا
ظلٌّ من ذاك الحينِ يغلي دفينَا
عزمُهُ حالقًا عليه يمينَا
من ألوفِ المجرَّبينِ مئينَا
مستثيرًا عليكِ حربًا زَبُونَا
أَنْ يكون انتصاره مضمونَا
كلَّ شيءٍ بأمره مرهونَا
حولك الأرضِ مِنْ خُطَى الهاجمينَا
فيلقًا تلو فيلقٍ زاحفينَا
لكِ مستقتلين يقتحمونَا
انقضاض القضاء ينقضُونَا
ناضلتِ عنك وهي تحمي الحصونَا
رود بل كان جندُك الواقينَا
يسبقون الركبان والطائرينَا
عب فيه بل يزدرون المنونَا
عن صيَاصيك كَرَّةَ الهاجمينَا
في سبيل الدفاع لا يبتغونَا
لقى جِماك العزيزُ حرًّا مَصُونَا
بهما كانوا قبلُ مستمتعينَا

في وجوه الألمان من بدءِ هذي الـ
بك شلتُ في وقعة المرن يسرا
حُلَّتْ دون امتدادِها وعليها
وابن غليومَ بالتحركِ أغرا
هكذا كان ذلك اليوم والألـ
كُسِرُوا كسرةً تردَّى وليُّ الـ
كنتِ مدعاة ما تعنَّاهُ يوم الـ
وعليكِ استشاط والغُلُّ فيه
ولإدراك ثأره منك أنضى
ومضى في استعداده مستجيشًا
وقضى فيه نحو عشرين شهرًا
لم يفرط فيما رآه كفيلاً
وإذ استوفى ما أراد وألفى
أصدر الأمر بالهجوم فرجَّتْ
وعليكِ الجيوش كالسيل طمُّوا
ومن الشرق والشمال تصدَّوا
وتنزَّوا على قلاع ضواحيك
ما حمَّكُ الحصون بل حامياتُ
ما وقاك الحديد والصخر والبا
هم تبارَوْا في الدَّودِ عنك مشاةً
وتجارَوْا إليه يستسهلون الصـ
وتواصَوْا أَنْ يثبتوا ويصدُّوا
وتفانَوْا فيه وهم غيرَ موتٍ
باذلين الحياة طوعًا لكي يبـ
وتجافَوْا عن راحةٍ ورفاهٍ

^٤ عرقُ في القلب.

وأعدُّوا عزمًا يفلُّ شبا الغا
ولعينيكِ واصلوا السُّهد حتى
ولعيني فردون سلُّوا سيوفًا
وتلقَّوا عنك الحديد بضربٍ
لم يرْعُهُم أنَّ العداة عليهم
مزَّقوا شملهم وعنك على الأعـ
زعموا أن وصل فردون سهل
ما استفادوا من بذلهم نصف مليو
هم شبُّوا عليك نازًا وإنْ أنـ
وابتغَوْا نهلة انتصار فباءوا
ورأوا أنهم بقايا فردريكِ

زين بل يفري أضلَّ الدارعينا
منعوا النوم أن يزور العيوننا
ما أرادت غير الصدور جفونًا
ساحق منه قلبه أو يلينا
هجموا كالبناء مرصوصينا
سقاب ردُّوا جموعهم ناكصينا
فراؤوا دونه رُبِّي وحُزُوننا
ن ولو زادوا فوقهم مليوننا
حقذت منها كانت لهم أُنُوننا
يجرعون الزُّقوم والغسلينا
وحاموك رهط نابليوننا

الفصل التاسع عشر

معارك سيناء

وصف انكسار الجيش العثماني وهزيمته من الرمانة إلى ما وراء رفح

في أول أغسطس سنة ١٩١٦ حاول الأتراك استئناف الهجوم على قناة السويس، ونشبت معركة الرمانة في ٤ منه، وأسفرت عن انكسار الأتراك وفرارهم من قطية فبئر العبد إلى العريش، وخسارتهم ٩ آلاف بين قتيل وأسير وجريح، وكان قائد الجيش البريطاني إذ ذاك الجنرال أرشيلد مري، وكان الفضل الأكبر في رد غارة العثمانيين، وتحميلهم هذه الخسارة الكبيرة لفرسان الأستراليين والنيوزيلنديين.

وفي ٢١ ديسمبر احتلّ الجيش البريطاني العريش، وفي ٢٧ منه احتلّ مقضبة، وفي ٩ يناير سنة ١٩١٧ احتلّ رفح، وتقهقر الجيش العثماني إلى خط خان يونس والشلال، ولم يبقَ له في شبه جزيرة سيناء من أثر.

ودخول الترك في الحرب صادرٌ عن غرور فيه أنور غائرٌ
فهو في الدولة ناهٍ وأمرٌ وبها خاطر غير محاذرٌ
وتناسى القول «ليس المخاطر»
زجّها في الحرب جوراً وظلمًا وعليها الشرّ جرٌّ فطمًا
وإلى الأهلين تُكَلّا ويُتَمّا ساق والجيش أجاع وأظمى
وبه طوّح تطويح جائرٌ
وهو فيها مثل كلّ اتحادي ناعم البال طروب الفؤاد
لا يبالون بما في البلاد من دمارٍ أخذٍ في ازديادٍ
وشقاءٍ لفم الفتك فاغرٌ

أَقْفَرُوا مِنْ سَاكِنِيهَا الْمَرَابِعِ وَمَنْوَهُم بِالرِّزَايَا الْفَوَاجِعِ
 غَادَرُوهُمْ بَيْنَ عَارٍ وَجَائِعِ وَأَخِي دَاءٍ عِيَاءٍ وَنَازِعِ
 وَمَسْجَى^١ لَا يُوَارِيهِ قَابِزُ
 وَعَلَيْهِمْ لِقْنَانَةُ السُّوَيْسِ غَزَوْهُمْ عَادَ بِشَوْمٍ طَوِيْسٍ^٢
 مَنْ نَجَا مِنْهُمْ بِهُونٍ قُعَيْسٍ^٣ أَبَ مَلْتَقًا فَأَظْمَارَ أُيُسٍ^٤
 وَقَنُوطٍ لِلْعِزَائِمِ نَاحِرُ
 مَعَ هَذَا كُلِّهِ لَمْ يَحِيدُوا عَنْ ضَلَالٍ مَا عَلَيْهِ مَزِيدُ
 بَلْ عَلَى مِصْرَ ارْتَأَوْا أَنْ يَعِيدُوا كَرَّةً أُخْرَى عَسَاهَا تَفِيدُ
 ظَفَرًا عَنْهُ تَذَاعُ الْبِشَائِرُ
 يَوْمَ رَمَانَةٍ كَانَ خَطِيرًا مَسْتَطِيرًا شَرُّهُ قَمْطِيرًا^٥
 أَصْلِي الْأَتْرَاكَ فِيهِ سَعِيرًا وَسُقُوا مُهَلًّا حَمِيمًا حَرُورًا^٦
 وَلَقُوا ضَرْبًا يَشُقُّ الْمَرَائِرُ
 فِيهِ يَا مِصْرَ حُمَاتِكَ صَدُّوا هَجَمَاتِ التَّرِكِ عَنْكَ وَرَدُّوا
 كَيْدَهُمْ فِي نَحْرِهِمْ وَاسْتَرَدُّوا لِكَ سَيْنَا كُلِّهَا وَاسْتَعَدُّوا
 لَتَخَطِّيْهَا إِلَى مَا يَجَاوِزُ
 يَوْمَ رَمَانَةٍ غَاذَوْكَ خَارُوا قُوَّةً فِيهِ فَزَاغُوا وَحَارُوا
 وَبِهِمْ كَادَ يَحِيقُ الْبَوَارُ وَلَهُمْ لَمْ يَبْقَ إِلَّا الْفِرَارُ
 وَبِهِ لَازُوا فَجَازُوا الْمَخَاطِرُ
 بَعْدَهَا قَطِيَّةٌ أَخْلَوْا وَبُئِرَ الْ- عَبْدَ جَازَا وَالْعَرِيشَ تَنْقَلُ
 ظَلُّهُمْ مِنْ أَرْضِهَا وَتَحَمَّلُ وَإِلَى مَقْضَبَةِ السَّيْرِ حَوَّلُ

^١ مِت مَغْطَى.

^٢ رَجُلٌ يُضْرَبُ بِهِ الْمِثْلُ فِي الشَّوْمِ.

^٣ رَجُلٌ يُضْرَبُ بِهِ الْمِثْلُ فِي الْهُونِ.

^٤ الْيَأْسُ، وَالْأَظْمَارُ الثِّيَابُ الْبَالِيَةُ.

^٥ الْيَوْمُ الْمَظْلَمُ الشَّدِيدُ.

^٦ الْمُهْلُ: صَدِيدُ الْمَيْتِ، وَالْحَمِيمُ: الْمَاءُ الْحَارُّ، وَالْحَرُورُ: الْحَرُ الدَّائِمُ.

وبها حلُّوا حلول المسافر
لم يَطلُ للترك فيها المقامُ وعليهم ثمَّ جدَّ الزحامُ
فجأةً ريعوا به والضرامُ شبَّ من حولهم والجِمامُ
فوقهم أضى يحوم كطائر
جاءهم جيش مري فابتلاهم بهجوم هدَّ ركن قواهم
حين ولَّوا مدبرين اقتفاهم ودهاهم مُعملاً في قفاهم
تحت داجي النَّقْع^٧ بيض البواتر
سامهم هُونًا وذُلًّا وخسرًا وانكسارًا منه ذاقوا الأمرًا
غادروا قتلى وجرحى وأسرى ضعف من نكص منهم وفرًا
هكذا كان جزاء المقامر
بعدها عانوا صروفَ النكالِ وغدتْ حالتهم شرَّ حالٍ
رفح اختاروا محطَّ الرحالِ وإليها عجلوا في ارتحالٍ
يسبق الأول منهم آخرُ
ولهم في رفح الظافرونا فاجئوا لا يرهبون المنونا
وعليهم هجموا صائلينا صولة الأسدِ بهم فاتكينا
فتك بازٍ بالطيور الأصاغر
هكذا كان مصير الذينا حاولوا تدويخ مصر جنونا
وقضوا عامين في تيه سنيا وبغوا ثمَّ انجلوا مُكرهينا
«وعلى الباغي تدور الدوائر»

^٧ الغبار.

الفصل العشرون

وصف الهجوم الروسي الثاني على النمسا

في ١٤ مايو سنة ١٩١٦ هجم الجيش النمسوي هجوماً عنيفاً على الإيطاليين في ترنتينو، واضطروا الجيش المدافع أن يتقهقر أمامه جالياً عن عدة مَدُن وقُرى وحصون، وكانت روسيا تتأهب لهجوم كبير على النمسا، وقد ضربت له موعداً في أول شهر يوليو، ولكنها عجلت فيه إغاثة لإيطاليا، وولت الجنرال برسيلوف قيادة جيشها العامة في الجنوب الشرقي، فهجم في ٤ يونيو هجوماً واسعاً من مستنقعات برييت إلى حدود رومانيا، فاجتاح بيكوفينا وجانباً كبيراً من غاليسيا، وأسر في ثلاثة أشهر نحو ٤٠٠ ألف، وبهذه الوسيلة اشتد ساعدُ الإيطاليين، فكروا على النمساويين واستولوا على غورتيزا، وتقدموا في الكارسو.

على مشتهاها وهي بالروس ظافرة
على يدها مع أنها عنه قاصرة
على روسيا كانت لها هي ناصرة
فكرت تُمنّي النفس بالنصر باشرة
وصارت على استئنافها الحرب قادرة
على البطش بالنمسا إليه مبادرة
فكرت سيوف العزم والفتك شاهرة
مُضعضة منها قواها وقاهرة
بها انقطعت أوصالها متناثرة
طلائعها منكودة الجِدّ عائرة

رأت دولة النمسا التقادير سائرة
توهمت النصر الذي نيل أنه
وقد نسيّت تعزيد ألمانيا التي
وظنت على إيطاليا الكرّ ممكناً
ولكن جيوش الروس كانت تأهبت
فهبت لها من كل حدبٍ وأزمعت
وكان برسيلوف الشهير يقودها
وشنت على الأعداء أصدق غارة
وكالت صفوف النمساويين ضربة
وردت على الأعقاب من أرض روسيا

تفرُّ وبَرْسيلوف يُنْضِي وراءَها
يشدُّ عليها بالطُّراد مغادرًا
تحاول بالفرِّ النجاة من الردى
ولما رأَتْ أَنَّ النجاة تعدَّرتْ
وَأَنَّ إليها كيدها لمصوبٌ
وَأَنَّ كماء الروس تغشى غليسيا
وتحتلُّ فيها أشهر المدن والقرى
لأنهارها مجتازةً وحصونها
رأتْ عُبرَ عينيها لما تم نشرها
ولبَّتْ نداء الأمرين لها بأن
فسلَّم منها في ثلاثة أشهر
ومجموعها بالعدِّ عشرون فرقةً
وذلك نصرٌ رنَّ في الأرض ذكره

ركائب جُرِدَ بالفوارس طائفةً
عزائمها من وطأة الضغط خائرةً
فلا تجد المنجى فترتدُّ حائرةً
وَأَنَّ سراياها إلى الهلكِ صائرةً
وإنَّ عليها الدائرات لدائرةً
عليها لَو التدويخ والفتح ناشرةً
لها فِرَق الغازين كالسيل غامرةً
مقوَّضةً حتى المضايق عابرةً
له أذنيها^١ فانثنتْ عنه خاسرةً
تدين بتسليم إلى الروس صاغرةً
جماهير كانت بالحياة مُقامرةً
لها روسيا في ساحة الحرب أسرةً
وسكَّان روسيا تهادوا بشائره

^١ هذا مثل أصله «نشر لذلك الأمر أذنيه، فرأى عبرَ عينيه»، يُضربُ لمن طمع في أمرٍ فرأى ما كرهه منه.

الفصل الحادي والعشرون

وصف دخول رومانيا في الحرب وانخزالها

في ٢٧ أغسطس سنة ١٩١٧ شهرت رومانيا الحرب على النمسا، واجتازت جيوشها مضائق الكريات، وأوغلت في ترنسلفانيا إلى مدى ٥٠ ميلًا، وحينئذٍ استغاثت النمسا بألمانيا جريًا على عاداتها، فأمدتها بجيش كبير جعلته مع الجيش النمساوي المدافع تحت قيادة الجنرال فلكنهين، وولت الجنرال مكنزن قيادة جيش آخر كبير مؤلف من فرق بلغارية وعثمانية وألمانية، فأطبق الجيشان على رومانيا؛ الأول من الشمال والآخر من الجنوب. وكان الهجوم الروسي السابق ذكره قد توقف، فلم تظفر رومانيا بالمساعدة التي كانت تتوقعها من روسيا، فاضطرت جيوشها أن تتقهقر عن بلادها كلها تقريبًا، ووقع جانب كبير من جنودها أسرى في أيدي الهاجمين.

سنتان طالَ مداهما والحرب ما	فتئتُ تزيد تسعُرًا وتضرُمَا
ونطاقها يمتدُّ في الدنيا على	سكانها بدجى الشقاء مُخيَّمَا
ما انفكَّ مُحضُّها يخاف خمودها	فيزيد مارجها وقيدًا كلما
أغرى بها الأتراك قبلاً ثمَّ من	سنةٍ بها البلغار زجَّ وأقحما
وعلى ارتكاب أشد ما يتصور الـ	إنسان من شرِّ الفضائع أقدما
للأمهات وللقرائن مُثكِلاً	ومُرَمَّلاً وصغارهن مُيَتَّمَا
وأقلُّ ما يجنيه قتلُ الأبريا	وأحلُّ شيءٍ عنده سفكُ الدِّمَا
كم داسَ عهدًا واستهان كبيرةً!	واجتاس قدسًا واستباح محرَّمَا!
وأتى جرائم اجفلت من هولها الد	نيا وضجت من فضائعها السَّمَا
ونما إلى رومانيا من وصفها	ما هاج ساكن غيظها فتحدَّمَا

جرمان نقضَ أساسه فتهدّما
عنها كما عن غيرها متحتّما
سنحت لها لتنال منها المغنما
قومًا يجزّعهم عداها العلقما
لتشقّ منطقة الحياض وتهجّما
سأملُ والدهر العبوس تبسّما
نفسًا ولاسترجاعها فتحت فما
تلبث أن اتّخذته حُكمًا مُبرّما
غرض الذي قصدته راشت أسهُما
أن جرّدت للزحف جيشًا خضرما^١
متوغّلا في فتحها متقدّما
غير الفرار إلى السلامة سلّما
مسا تهيبّ بجيشها أن يُحجّما
بالزحف بل صاح الجميع: إلى الأما^٢
هول المصاب أمامها متجسّما
هيوا انظروا جرحي وهاتوا المرهما
جيشًا لصدّ الهاجمين عرمرما
أتركُ والبلغار جيشًا منهما
عن عاتق النمسا العناء الأعظما
درءًا لعادية الهجوم على الحمى
حلفائها حدّ الهجوم تئلّما
ما اعتمّ فيه نصرهم وتختّما
بدل الهجوم على الدفاع وأرغما
جيش لفلكنهين قائده انتمى

وتحقّقت أن السلام تعمّد الـ
ورأت عليها فرض دفع بلائه
والحظ أظفرها بأحسن فرصة
وتضم تحت لوائها من شعبها
وهجوم برّسيلوف شدّد عزمها
وإلى ترنسلفانيا طمحت بها الـ
وبقرب إشرافٍ عليها علّلت
ووقوفها في جانب الحلفاء لم
والحرب شبّتها على النمسا وللـ
وعلى ترنسلفانيا ما أبطأت
غشى مضايقتها وجاز حزونها
وأمامه الجيش المدافع لا يرى
واسترسل الرومان في التدويخ والنـ
وإلى مدى خمسين ميلاً ما اكتفوا
وارتاعت النمسا ارتياحاً إذ رأت
فشكت إلى الألمان قائلةً لهم:
ولغوئها جمعوا الصفوف وعبّئوا
منها ومنهم ألفوه وجرّد الـ
وهجوم برّسيلوف أوقف رافعاً
فتمكّنت من نقل معظم جيشها
وبه وبالممد الذي نالته من
واضطرت الرومان أن يخلوا لها
فتراجعوا عنه وأكره جيشهم
ولهم من النمسا تصدّى هاجماً

^١ الخضرم الكثير.

^٢ أي «إلى الأمام» من باب الاكتفاء البديعي.

ومن الجنوب أتى مكنزن قائداً
وعليهم الجيشان حالاً أطبقا
عبرَ المضائق ذاك منقضاً وذا الد
سداً على الرومان بابَ الغوث من
لم يستطِعه قطُّ إلا روسيا
ويقال لو كانت بما وعدتْ وفَتْ
ويقال بل رومانيا أولى بأن
أما أنا فأعذه سرّاً ومَن

جيشاً فأنجد في الهجوم وأتھما
وخطى مكنزن في الهجوم ترسماً^٣
انوب شقَّ وجازهُ متقدماً
حلفائهم في الغرب سداً محكماً
وهي التي وعدتْ به لكنما
صدوا الهجوم ولم يُصِبْهم منه ما
يُقْضَى عليها بالملام ويُحْكَمَا
لي أن يبوح به إليّ فأعلما

^٣ أي الهجوم بكتائب مرصوصة.

الفصل الثاني والعشرون

ثورة الحجاز

مما يُؤسَف له كلُّ الأسف أنَّ أنور وطلعت وجمال وغيرهم من الاتِّحاديِّين القابضين على أزمَّة الأحكام في تركيا أقدموا في أثناء هذه الحرب على ارتكاب جرائم تقشعُر لشدة فظاعتها الأبدان، واقترفوا مآثِم لم تسمع بمثلها أذن، ولا رَأَتْه عين، ولا خطر على بال إنسان؛ فإنهم وهم مشتبِكُون في الخارج بحرب طاحنة عرَّكَتهم عركَ الرِّحى بِثِقَالِها، أعانوا العدوَّ عليهم بأن أطلقوا في الداخل أيدي التدمير والتخريب والإرهاق والتعذيب، وعمدوا إلى رعايا الدولة من الرُّوم والأرْمَن^١ وأعملوا فيهم السُّيوف والرَّصاص والمشانق، واستباحوا أموالهم وأعراضهم، وسبَّوا نساءهم وأولادهم، وبلغوا في بهظ العرب والتنكيل بهم مبلغًا ارتجَّت مِن هَوْلِهِ الأرض والسماء، وأغضبَ الشريفَ الهاشميَّ سليلَ سيد البَطْحاء، فخرجَ خروجَ الأسد من عرينه، واستلَّ مرهفَ أبيه بيمينه، ونهضَ بأنجاله^٢ نهضةَ الضُّرغام بأشباليه، وأعلنَ قطعَ علاقته بالحكومة التركية، وانضمامه إلى دول الحلفاء. وكان ذلك في أوائل شهر يونيو سنة ١٩١٦ (٩ شعبان سنة ١٣٣٤)، وما عَمَّ أن استَوَى رجاله بقيادة أنجاله على مكة المكرمة وجدَّة الطائف وغيرها من الأقطار الحجازية، وحاصروا الحامية العثمانية في المدينة المنورة، ونُودي بالشَّريف حسين بن علي مَلِكًا على الحجاز، وأجمعتْ دُول الحلفاء كُلُّها على الاعتراف به.

^١ بلغ عدد الذين فتكوا بهم من الأرمن مليون ونصف مليون، وقد لا يُقَلُّ عنه عددُ الذين اغتالوهم من الرُّوم.

^٢ الأمراء علي وعبد الله وفيصل وزيد.

ولم يَفِ الاتّحاديون إذْ حكموا بالوعد أن يعدلوا في الحكم بل ظلّموا
 وخالفوا خطّة كانوا لها رسموا وحولّوا ما رعاياهم به نَعَموا
 إلى شقاءٍ بأنّ ينتابهم حتموا
 وبعدهما أعلنوا الدستور ما لبثوا أن استبدّوا وفي أيّمانهم حنثوا
 ولم يصونوا حقوقَ الشعب بل عبثوا بها وعهدَ التساوي بيننا نكثوا
 كأنّه لم يكن عهدٌ ولا زِمٌ
 منّوا علينا كثيراً أنهم خلّعوا عبدَ الحميد وعنا نيزه نزعوا
 حريةً وإخاءً بيننا وضعوا وفي عطاءٍ مساواةٍ لنا شرعوا
 حتى تظللنا الخيرات والنعم
 بهم وثّقنا وأخلّصنا لهم وعلى إنجاز ما وعدونا كلُّنا اتّكلا
 لكننا لم نجدْ فيما أتوا عملاً مؤيِّداً قولهم بل خيّبوا الأمل
 وما بنينا على دستورهم هدموا
 بخلع عبدِ الحميد الحيف ما اقتلعوا بل معه أضعافه في أرضنا زرعوا
 تفتّنوا فيه ما شاءوا بل اخترعوا له أساليب مكرٍ كلُّها بدّع
 والله منهم عليها سوف ينتقمُ
 وكان أفظع إثم بابهِ فتحوا تلك الدماء التي سفحاً لها سفحوا
 أعني دما الأرمن القوم الألى ذُبّحوا ذبح النعاج وما خانوا ولا اجترحوا
 سوى براءتهم مما به اتّهموا
 بسفكِها اتّهموا عبدَ الحميد^٢ ومنّ معه فصّدّقهم من في نُهاه وهنّ
 والله يعلمُ والأملُك تشهدُ أن عبد الحميد بعيدٌ في الحقيقة عن
 هذه الفِعال وأنّ الفاعلين همُ
 وبالرزايا منّوا كالأرمن العربا وأرهقوهم فذاقوا الويلَ والحربا
 والعُربُ أشرفُ أمّا منهم وأبا في عهد دولتهم هذي غدّوا ذنبا
 لشرٍّ رأسٍ تحاشتْ حملهُ البهْمُ

^٢ الإشارة هنا إلى مذابح الأرمن سنة ١٩٠٩؛ فإنّ الاتّحاديّين اتّهموا بها السلطان عبد الحميد ليتمكّنوا من خلّعه، وكانوا بالحقيقة هم الذين ارتكبوها.

بنعمة العرب الأتراك قد كفروا وفضلهم غمطوا عمداً فما ذكروا
وفي بني جنسهم إحسانهم حصروا وفي سواهم تمشى منهم الضرر
كما تمشى بجسم المذنب السقم
ومنذ ما الحرب مع ألمانيا دخلوا وما لهم ناقةً فيها ولا جمل
لبأهم العرب والهيحاء تشتعل لَمَّا دَعَوْهم وبالأرواح ما بخلوا
ولجها معهم لَمَّا طمأ اقتحموا
لكنهم وسعير الحرب يلهب والعرب معهم إلى حوماتها وثبوا
لم يتفقوا ربهم فيهم كما يجب وقد نسوا أو تناسوا أنهم عرب
لا يصبرون على من حقهم هضموا
في السلم ما عدلوا فينا ولا رفقوا وفي الوغى جندهم عن جُندنا فرقوا
وَأَلَفَ عذر لهم في ضيماً اختلقوا وكم على يدهم منا نفوا فشقوا!
وكم وكم في غيابات السجون رُموا!
وعمَّ سوريّة الجور الذي ارتكبوا فضجت القدس منه واشتكت حلب
وأرضها بدما أبنائها خضبوا حتى المشانق في ساحاتها نصبوا
وكم شهيد عليها عنقه قصموا!
ذا بعض ما شره أهل الشام عرا به اجتزأت عن التطويل مختصرا
لكنه ذاع بين الناس منتشرا حتى به سمعت أم القرى خبرا
فأكبرته وضج البيت والحرم
إذ ذاك هبّ الحسين الأشرف ابن علي يذود عن قومه بالبيض والأسل
وصاح في تركيا يا ضيفن ارتحل^٤ عنا ويا ظلّها من أرضنا انتقل
واذهب إلى حيث ألقَتْ شاعك^٥ العدم
وكرّ أشباله معه وما زأروا إلّا إليهم حجازيُهم ابتدروا
والحرب شُبوا على الأتراك فانتصروا وطاردوهم حتى عَقَدَهم نثروا
من أرضهم وعرى استنثارهم فصموا

^٤ الضيفن من يجيء مع الضيف متطفلاً.

^٥ تبعك.

وَإِنَّ هَذَا لَأُسْمَى نَهْضَةً ثَلَجَتْ لَهَا صُدُورُ بَنِي قَحْطَانَ وَابْتَهَجَتْ
بِهَا أُلُوفُ نَفُوسٍ أُنْقِذَتْ وَنَجَتْ وَأَلْسُنُ الْخَلْقِ طُرّاً بِالنُّنَا لَهَجَتْ
عَلَى الْأَلَى الدِّينِ وَالْدُنْيَا بِهَا خَدَمُوا
وَقَبْلَهَا أَرْجَفَ الْأَتْرَاكُ وَاخْتَلَقُوا مَا أُنْشَأَ الْخَوْفُ فِي الْإِسْلَامِ لَوْ صَدَقُوا
قَالُوا لَنَا الْحَلْفَا سَرّاً قَدْ اتَّفَقُوا عَلَى مَنَاهَضَةِ الْإِسْلَامِ بَلْ طَفِقُوا
يَسْعُونَ فِيمَا عَلَى إِجْرَائِهِ عَزَمُوا
وَعِنْدَمَا ابْنُ النَّبِيِّ انْضَمَّ لِلْحَلْفَا وَانْحَازَ كَذَّبَ هَذَا الْإِفْتِرَا وَنَفَى
وَمَسْلَمُو الشَّرْقِ كُلُّ مَنْهُمْ عَرَفَا هَذَا النِّفَاقَ فَمَا بِالَاهِ بَلْ صَدَفَا
عَنِ الْوُشَاةِ وَلَمْ يَعْصُوا بِمَا رَجَمُوا
وَلَمْ يَرِ الْإِتِّحَادِيُّونَ مَا نَشَدُوا بَلْ شَرَّ مَا زَرَعُوهُ بَيْنَنَا حَصَدُوا
تَفْرِيقَنَا طَلَبُوا لَكِنْهُمْ وَجَدُوا مَنَا اتِّفَاقًا عَلَيْهِمْ عَكْسَ مَا قَصَدُوا
وَبِئْسَ مَنْقَلَبَ الْقَوْمِ الْأَلَى ظَلَمُوا

الفصل الثالث والعشرون

تدويخ العراق وفتح بغداد

في ٢٣ ديسمبر سنة ١٩١٦ شرعت الجنود البريطانية بقيادة الجنرال ستنلي مود^١ تستأنف الهجوم في العراق، فضربت مواقع العدو في الثنَّيَّات، وهاجمت ضواحي كوت الإمارة، واستولت على كوت في ٢٤ فبراير سنة ١٩١٧، وحملت الجيش العثماني خسارة نهكت قواه وأضعفت عزائمهم، فولى أمام مطارديه الأدبار، وأمعن في الفرار حتى كان في أول مارس قد اجتاز العزيزية، وبلغ عدد المأسورين منه ٧ آلاف.

وفي ٨ مارس اجتاز فرسان الجيش البريطاني مدائن كسرى (كتيزيفون)، وعبروا نهر دياله، وفي ١٠ منه بلغوا ضواحي بغداد، وفي ١١ منه دخلوها، والمسافة بين كوت الإمارة وبغداد ١١٠ أميال، قطعوها في أقل من أسبوعين وهم يطاردون الأتراك، وعبروا دجلة ٣ مرات.

وفي العراق الترك ما كذبوا	أن استلذوا النصر واستعذبوا
وأوهموا أتباعهم أنه	نصر مبين باهر أشهب
وأن ضنكا شفهم زال والص	عاب هانت وانجلي الغيهب
وأن في استرجاع كوت لهم	فخرًا صداه في الورى يذهب
وأنهم راعوا بريطانیا الـ	عظمى فباتت بأسهم تهرب
وأنهم في جيشها أحدثوا	صدعًا بعيد الغور لا يشعب

^١ توفي هذا القائد العظيم في بغداد مساء يوم ١٩ نوفمبر سنة ١٩١٧، وخلفه الجنرال مارشال.

وَأَنَّ غَرَبَانَ الْقَضَاءِ عَلَى فُلُولِهِمْ لَا بُدَّ مَا تَنْعَبُ
وَأَنَّ هَذِي الْحَرْبِ فِي رَأْيِهِمْ لَيْسَتْ سِوَى أَلْعُوبَةِ تُلْعَبُ

* * *

بسمع هذي المضحكات وما
والطيش أعماهم فاستبعدوا
سارين في داجي الغرور ولا
وفاتهم أَنَّ الهَزْبَرَ الذي
وأنه عمّا قليل عدا
وبينما الأقدار تجري ولا
فاجأهم مودّ بجيش له
وصاح فيهم صيحةً أشبهت
وهبّ يغزوهم ومن بطشه
جنوب كوتٍ فلهم زاحفاً
واحتلّها حُماتها غالباً
ومن نجا منهم شمالاً جرى
ويحسب الأسرى ألوقاً وفي الـ
أما الألى قتلى وجرحى هووا
وبعد كوتٍ خفّ مودّ ورا
يقود جيشاً ينهب الأرض إذ
وعزمه يُعزّي لصلد الصفا
وكرهه إن صال في ساحة الـ
به اقتفى مودّ خطى ساقية الـ
وجدّ في فتح الحصون على
حتى أتى بغداداً فاحتلّها
فأطلقوا للريح سيقانهم
وغادروا بغداد وهي من الـ
وليس في أجفانهم دمة

أشبهها آذانهم أطربوا
ما كان منهم شره يقرب
يرؤن ما في جوهم ينشب
هاجوه منه ما لهم مهرب
ه ضربه قاضية يضرب
يدرون ما في لوجها يكتب
أيان سار النصر يستصح
زمجرة الضرغام إذ يغضب
يشبّ ناراً حولهم تلهب
وجدّ في استرجاعها يدأب
بقوة كالسيل لا تغلب
ومودّ جارٍ خلفه يعقب
مجموع منهم فوق ما يحسب
فالحق أنّ عدّهم يصعب
أعدائه إرهابهم يطلب
يمشي ويغزو الجوّ إذ يركب
لكنه من قلبها أصلب
وغى إلى أسد الشرى ينسب
أترك وهو سوقهم يقضب
أبراجها أعلامه ينصب
وأكره الأتراك أن يهربوا
وخلفهم ذيل الوجى يسحب
على الغوالي نهبة تنهب
حزناً على فقدانها تسكب

وإن يقولوا غير ما قلتُه	للغض من قيمتها يكذبوا
ففقدوها جرّعهم شربةً	أمرٌ منها قطُّ لم يشربوا
وعدّه أقطابهم نكبةً	بمثلها من قبلُ لم يُنكبوا

الفصل الرابع والعشرون

دخول ولايات أميركا المتحدة في الحرب

في ٣١ يناير سنة ١٩١٧ أرسلت ألمانيا إلى جميع الدول المحايدة مذكرة قالت فيها إنها من أول فبراير ستطبق لغواصاتها العنان؛ لكي تغرق جميع البواخر بلا قيد ولا شرط، غير مراعية جنسيتها ولا حمولها، وأمهلّت البواخر خمسة أيام لتعود فيها إلى المواني المحايدة، فأحدثت هذه المذكرة في بلاد المحايدين عمومًا، وولايات أميركا المتحدة خصوصًا، هياجًا واضطرابًا لا مزيد عليهما.

وفي ٣ فبراير قطعت الولايات المتحدة علاقاتها السياسية بألمانيا، وفي ٦ أبريل شهرت الحرب عليها، وأخذت تستعد لها استعدادًا أدهش العالم قاطبةً، وعلى الفور وقفت حكومتها على تجنيد عشرة ملايين رجل، واعتمد ألوف الملايين من الريالات لها وللحلفاء، ووقفت جميع المعامل في بلادها على بناء البواخر وصنع الأسلحة والذخائر، وإمداد الحلفاء بكل ما يحتاجون إليه من ميرة وذخيرة، وشرعت في إرسال جيوش إلى فرنسا.

وفي ٨ يونيو رست بوارجها في المواني الفرنسية، ووصل قائد جيوشها العام الجنرال برشنغ إلى إنكلترة، وفي ٢٨ منه وصلت طلائع جيوشها إلى فرنسا، ثم أخذت البعثات تتلوا بعضها بعضًا على رغم شدة مقاومة الغواصات لها، وزاد متوسط عددها في كل من الأشهر الأخيرة على ٣٠٠ ألف، وبلغ مجموعها عند عقد الهدنة مليونين ونصف مليون.

حتى متى تجفّ القلوب وتخفق؟! وإلامّ تضطرب النفوس وتقلق؟!
والخلق طرًا في شقاءٍ شاملٍ وبودهم لو أنهم لم يُخلّقوا

ولو أنهم مُنِحوا الخيار لَطَلَّقُوا
في هذه الدنيا البقاء فما لقوا
وسعيرها يشوي الأنام ويحرق
وِدْماءهم هدرًا تَشَجُّ وتُهِرَقُ
وجسومهم بظُبي الأسنَّة تعرق^٢
ويشيب من رأس الوليد المفرقُ
كالسيل يجرف ما أصاب ويُغْرِقُ
والغرب ضَجَّ لهولها والمشرقُ
شيئًا به الذكرى تليقُ وتلبقُ
كانت لدى هذي بَلِيلًا^٣ تُنَشَقُ
ومَهْنَدٌ يُنْضَى وسهم يُرْشَقُ
أَكْرُ الحديد من المدافع تُطْلَقُ
من قبلُ ناصية المعارك تمشقُ
مهما يَطْلُ وَيَسَعُ قصيرٌ ضيقُ
سلعُ بأسواقِ التحمُّلِ تُنْفَقُ
سيلٌ على كلِّ الورى يتدفقُ
في غمرها غرقوا ولا يترفقُ
مولاه شيطان الوغى لا يُشْفِقُ
فيها على الحلفاء نصرًا يُرْزَقُ
دَمُ شعبه فيها يعبُ وَيُنْفِقُ
ويطيش من كَرِّ الحبوط وينزقُ
في منعها قبلَ الشُّبوب فأخفقوا

سئموا اقتترانًا بالحياة أمَّضهم
طمعوا بأن يلقُوا أَقْلًا مسوَّغ
والحرب فيها لا تني^١ مشبوبة
المالَ تُفني والرجالَ تبيدهم
بقذائف البارود تنثر هامهم
قلب الحديد يذوب من أهوالها
عمَّت رزاياها البرايا كُلَّهم
من قبلها شَبَّتْ حروبُ جَمَّة
لكنها في جنب هذي لم تكن
تلك الحروبُ على اشتداد سَمومها^٢
وسلاحها رمحٌ يُحَدِّدُ نصله
ومع الرصاص البندقي استنبطت
هذي هي العُدَد التي كانت بها
وزمانها إذ ذاك مثلُ مجالها
وعلى فداحة ما جَنَّتْ فخطوبها
لكنما هذي الكريهة شَرُّها
ومُثيرها غليوم لا يرثي لَمَن
ورجاله كلُّ يسير على هوى
أذكى شرارتها وأمل أنه
ومضى عليه ألف يوم وهو من
ما زال يُحضُّها ويُضرمُ نارها
ويواصل الحرب التي الحلفا سَعَوْا

^١ لا تزال.

^٢ تأخذ ما عليها من اللحم.

^٣ السَّموم: الريح الحارة.

^٤ البليل: الريح الباردة.

ينفكُّ منها يحتويه مأزُق
وعن المحارم لم يذُده مَوْثُق
ويحزُّ لبَّاتِ العهود ويخرقُ
في أنفُسِ الآثارِ سهمًا يمرقُ
سفنُ الهوا ترمي بها وتحلُقُ
بفضائعِ الألمان جهراً ينطقُ
كم من جراها أهل لندن أَقْلِقُوا!
قتلت وليس به غبارٌ يلصقُ
وإلى بيانِ الكل لا أَتَطَرِّقُ
يشكو الصدى وفؤاده يتحرَّقُ
حلق المحيط بها يغص ويشرقُ
وتجدُّ في تنفيذها وتُدَقُّ
تفويضه من كل قيد مطلقُ
ألمانيا عاراً به تتمنطقُ
تنفكُّ ركب المنشئات^٦ تُغرِقُ
هذا البلاءُ المستطير الموبِقُ
إنذار يُرعد بالوعيد ويُبْرِقُ
وعلى التماذي في جرائمهم بقوا
للحرب هبة أذيع لا يتحقَّقُ
باب الجنوح إلى الكفاح ويُغَلِّقُ
حلفا الذين لها عَنوا وتملِّقوا
مهما تزده ففرقة أو فيلقُ
فتصدُّها عن قصدها وتُعَوِّقُ

ويجدُّ في توسيع شُقَّتْها ولا
لم يرعَ فيها قطُ حرمة شرعة
بل هبَّ ينتهك الشرائع كلها
فأباح تخريب الكنائس مُرسلاً
وأحلَّ قتل الأبريا بقذائفٍ
ولأنتِ يا لوفانُ أصدق شاهدٍ
كم غارة شنت على باريس! بل
بل كم قتيلاً فيهما وسواهما
ذا بعض ما اجترحته طياراته
لكنما حوتِ الفضائع لم يزل
فرمى بغواصاته حتى غدا
وتسابقَت تجري أوامر ربها
ولها بإغراق السفين وركبها
فأتت جرائم سجَّلت فيها على
وأقامت الدنيا عليها وهي لا
وحكومة الدكتور ولسن هالها
وعلى التلافي حُضَّتِ الألمان والـ
لكنهم لم يأبهوا لوعيدها
سخرها بصولتها وعدُّوا شهرها
وغرامها بالسُّلم يُوَصِّد دونها
وإذا أرادت أن تمدَّ بجيشها الـ
فجنودها في كل شهرٍ عدُّهم
ولهم بعرض البحر غواصاتهم

* * *

^٥ أغرقت الغواصات ما حملته ١٤ مليون طن.

^٦ السفن.

ما بينهم هذروا بها وتشدَّقوا
وبهم على الفور اقتدوا وتخلَّقوا
خَفُّوا وإتيان الكبائر نَسَّقوا
أَنْ يُوثَّقوا هم كالجُنَاة وَيُشْنَقوا
غازات تحرق والسوائل تَخْنَق
لَا بِهَا أغراضهم تتَحَقَّق
فتسومهم ما لا يُطَاق وترهق
وتجُمُّ^٧ كاساتِ العذاب وتُذْهِقُ
مَيْلاً تُجَاح به النفوس وتُزْهِقُ

هذي الأقاويل التي الألمان في
واستدرجوا حلفاءهم فتسابقوا
وإلى اقتراف المنكرات جميعهم
نصبوا مشانق أبرياء وحَقُّهم
وتفننوا في الموبقات فأطلقوا الـ
واستخدموا للقتل والتعذيب آ
أَمَّا الألى لا يُورَدون بها الردى
ولهم بأصناف الرزايا تبتلي
وتذيقهم نُكْلاً وتيتيماً وتر

* * *

حقروا وشدة بأسها لم يَتَّقوا
بوعيدها صدقت وهم لم يصدَّقوا
كلُّ أخاه إلى التطوُّع يسبق
يَكُّ واحد منهم يعقُّ ويأْبِقُ^٨
أَمَّ الرجال وكالسحاب تبَعَّقوا
كتور ولسن كلَّ شيءٍ علقوا
وقفوا على سعة ولم يتضيَّقوا
جَدَّتْ ففازت والأجدُّ الأسبق
نيا بما فيه سَمُّوا وتفوَّقوا
فجروا على سنن الحياد ودَقَّقوا
ظفروا بأسباب الوفاق لوفَّقوا
منهم وسوَّوا بينهم لم يَفْرِقوا
كالغيث من كرمائهم تتدفَّق

بأميركا هزءوا وقوة جيشها
فتحفَّزَتْ للحرب تُثَبَّتْ أنها
واستصرختْ أبنائها فتراكضوا
تسعون مليوناً بها برُّوا ولم
صرخوا بصوتٍ واحدٍ لَبَّيْكَ يا
وعلى مشيئتها ورهن رئيسها الد
أموالهم وعقولهم ودماءهم
نهضوا للاستعداد نهضة أمة
في حَالَتِي سَلَمٍ وحربٍ أدهشوا الد
في السَلَمِ راعوا ما اقتضاه مقامهم
وقفوا أمام بني الوغى ولو انهم
وتجنَّبوهم لم يحابوا واحداً
شملوا فريقهم بإحساناتهم

^٧ تملأ ومثله تدهق.

^٨ يعقُّ: يعصي، ويأْبِقُ: يتمرّد.

وتعهدوا الجرحى بجمعياتهم وعلى الألى نُكبوا بهذي الحرب قد سل عن مآثرها العظيمة شرقنا فلها حديث في فرنسا شائق

نسماتها في كل صُقعٍ تعبق بسطوا أكف سخائهم وتصدّقوا ينطق ومنه بها أوروبا أنطق وصداه في البلجيك منه أشوق

* * *

لزموا الحياد فزادهم ربّاً ومن لكنهم لم يُرضهم أن ينعموا وفظائع الألمان يسبق بعضها ولذلك ما نبذوا الحياد وأنكروا في السّلم لم يتمكّنوا أن يحبسوا فتذرّعوا بالحرب يتخذونها والحرب أكبر وازع^٩ للحرب إذ في السّلم راعوا العالمين بما على الـ والحرب فيها أدهشوا الدنيا بأن بعزيمة تفري الحديد وهمّة لم ينصرم عام على استعدادهم وعليهم انقضت مئات ألوفهم لم يعبثوا بوعيد غواصاتهم عبروا الخضم كأنهم ساروا على فيه استقلّوا الباخرات فأبحرت وكأنها جسر كبير ممتد

جرّائه لم يبق فيهم مُملق^٩ والبؤس عم على البرية يطبق بعضاً لها في كل يوم ملحق أرباحه وعلى الكريهة أطبقوا شراً له الألمان عمداً أطلقوا وهّقا^{١٠} يغلّ به العدو ويوثق بسعيرها يكوى المُثير ويحرق عافين من بدر المعونة أغدقوا نهضوا لها وتوقّلوا وتسألّوا نفّاذة هام المصاعب تفلّق إلا الخناق على الأعادي ضيقوا عبر المحيط كما الصواعق تصعق بل جاوزوا أخطارها وتدفقوا يَبَس لهم عضد الأمان مطوّق والدارعات بها تحف وتُحديق لليم أو هو فوقه متعلّق

* * *

^٩ فقير.

^{١٠} الوهق: حبل يطرح في العنق للأخذ.

^{١١} مانع.

هذا هو الشعب الذي «البوش» ازدروا
ولسوف يلقون العقاب معجلاً
يهوي وعندئذ أوف الوفهم
ونفوسهم بلطى العذاب تدوب والـ

وله على رغم التجلّد أحنقوا
يهوي عليهم كالقضاء يطبق
تهوي وشمل صفوفهم يتمزق
أسنان من حنق تصرّ وتحرق^{١٢}

^{١٢} تصر: تصوت، وتحرق: تسحق حتى يُسمع له صريف.

الفصل الخامس والعشرون

الثورة الروسية

حدثت هذه الثورة في ٩ مارس سنة ١٩١٧، وانتهت بخلع القيصر وتأليف وزارة وطنية رئيسها البرنس لفوف، ومن وزرائها المعروفين جوتشكوف للحربية، ومليوكوف للخارجية، وكرنسكي للحقانية، وترستشكو للمالية، وألكسيف لقيادة الجيش العامة. على أنها كانت لسوء الحظ من الوزارات القصيرة الأعمار؛ لأن الحزب المعروف بحزب المجندين والعُمال كان قد اشتدَّ ساعده وامتدَّ نطاق نفوذه بسعي كرنسكي أحد كبار زعمائه؛ فهبَّ لمناوأتها وجدَّ في مقاومتها، وفي ١٤ مايو ثار عليها هذا الحزب، فأسقط مليوكوف وزير الخارجية، فخلفه ترستشكو وزير المالية، واستعفى جوتشكوف وزير الحربية وخلفه كرنسكي وزير الحقانية. وفي ٢٠ يوليو استقال البرنس لفوف رئيس الوزراء وخلفه كرنسكي، وفي ٧ أغسطس أُعيد تأليف الوزارة، فتعيَّن كرنسكي رئيساً لها ووزيراً للحربية والبحرية، وأصبح حاكم روسيا المطلق.

فلم يَمُضْ بضعة أشهر على خلع القيصر حتى شهدت بتروغراد فتنتين كبيرتين على رجلين من أعظم رجال حكومتها، أولاهما في شهر مايو حين قام الجمهور على مليوكوف وأسقطوه من وزارة الخارجية كما تقدَّم الكلام، والثانية في أواسط شهر يوليو حين ثار فريق كبير من الاشتراكيين المتطرفين والمكسيماليين وأنصار لنين (الذين عُرفوا فيما بعدُ بالبلشفيك) على كرنسكي لكنهم فشلوا، على أنهم بقيامهم هذا، وما أحدثوه في العاصمة يومي ١٦ و١٧ يوليو من الهياج والشغب والسلب والنهب؛ أثَّروا أسوأ تأثير في الهجوم الذي شرع فيه الجنرال كرنيلوف في أول يوليو وأسفر في نحو أسبوعين على أسر ٣٦ ألفاً من الجرمان وامتلاك عدة مدن وقرى؛ فإنَّ هذا الهجوم توقَّف بغتة، وسرى رُوح التمرد والعصيان والخيانة بين الجنود، فاستحال الهجوم إلى تهقُّر شائن أشبه بالانكسار، وجلَّوا عن جميع الأماكن التي كانوا قد احتلُّوها في هذا الصيف وفي الصيف الماضي في

غليسيا وغيرها، وارتدُّوا إلى بسارابيا، وتلا ذلك وقوع الشقاق بين كرنسكي وكرنيلوف، واستعفاء ألكسيف من القيادة العامة.

وفي أوائل شهر نوفمبر شَبَّتْ ثورة أخرى تمكَّن بها المكسيماليون أو البلشفيك من قلب حكومة كرنسكي، واستأثرت لينين وتروتسكي بالسلطة، وما أبطأ هذان أن هادنا ألمانيا وحلفاءها وعقدا معهم ذلك الصلح المذل المُهين المعروف بصلح برست ليتوفسك، وأمضيت معاهدته يوم أول مارس سنة ١٩١٨. أمَّا الفظائع التي ارتكبتها البلشفيك في روسيا، فتضيق عن وصفها أكبر المجلدات؛ فإنهم قتلوا القيصر والقيصرة وأولادهما أفطع قَتْلَةً، واغتالوا كثيرين غيرهم من الأسرة المالكة، وأطلقوا السيف والنار في بتروغراد وموسكو وغيرهما من أمَّهات مدن روسيا، وطوَّحوا بالبلاد كُلِّها في مهاوي الخراب والدمار.

يا لها من حربٍ عوانٍ زَبُونِ! في البرايا تدورُ كالمُنَجَّنُونِ!^١
 إنها كالرحى وهم كالطحينِ كل يوم حديثها ذو شجونِ
 مُضِرٌّ في الورى سَعِيرَ الشجونِ
 لا يني^٢ بحرهما الخضمُّ يَعُجُّ بهديرٍ للأرض رجًّا يَرُجُّ
 ولظاهما في الخافقين يَزُجُّ وألوفُ الألوفِ فيه تُزَجُّ
 كهشيم يُزَجُّ في أتُونِ
 وإليها الأحلاف سيقوا اضطرارًا ليس فيهم مَن رامها مختارا
 أكرهتهم ألمانيا والنارا أضرمتُ والشرارُ منها استطارا
 من أوروبا إلى بلاد الصينِ
 غشي الأرض مارجُ الهيجاء وتلظى ضرامُها في الهواء
 وعلى الماء ثم تحت الماء عمَّ قتلُ الورى وسفكُ الدماء
 وعلى الكون مُدَّ زيحُ^٣ المَنُونِ
 خاضها الرُّوس عن بني الأعمام يتوخَّون صدَّ سيلٍ طامٍ

^١ الدُّولاب أو «الساقية».

^٢ لا يزال.

^٣ خيط البناء الذي يمدّه لتسوية البناء.

ولهم منذ سالف الأيام شهرةً في الإنقاذ للمستضام
حين يدعو يا روسيا أنقذيني
عبثوا للوغى جيوشاً تترى وانبروا يزحفون برًا وبحرا
وأداروا في الترك طعنًا نترأى وأذاقوا النمسا عصيرًا أمرًا
من مزيج الزقوم والغسلين
وعليهم معول الحلفاء كان في نيل الانتصار النهائي
أملوا أنهم بلا إبطاء يضربون العدو في الهيجاء
ضربة تفري منه عرق الوتين
هكذا أملوا ولكن دهاهم ما رآوه مخيبًا لمناهم
وجدوا الروس قصروا واعتراهم طارئ باغت فخارت قواهم
رغم سبق التشديد والتمكين
عصفت بينهم رياح الشقاق فاصماتٍ منهم عرى الاتفاق
فنظرنا وإن بنا لا نلاقي بعد ماضي الوئام غير انشقاق
عابثٍ بالنظام والقانون
بدءوا بالكفاح بدءًا مجيدًا وأغاروا على الأعادي أسودًا
كلهم كرهًا بأسلًا صنيديًا ربَّ عزمٍ ماضٍ يفلُ الحديدًا
واقترحوا يروع ليث العرين
وإن استسلموا إلى الانقسام صار إقدامهم إلى إحجام
ثم قفوا إحجامهم بانهزام وانتهى بدوهم بشرَّ ختام
وغدوا بعد عزهم في هون
بينما كان الجيش في الميدان يتفانى نودًا عن الأوطان
كان بعض من زمرة الأعيان في ائتمارٍ على أطراح الطعان
والتآخي مع العدو الخثون
كان هذا الأمر الفظيع المنكر غاشيًا في الخفاء قصر القيصر
دبرته أم الدهاء الأكبر فهي كانت للشر أكبر مصدر

وهي أصل الداء العياء الدفين
 لم تَزَلْ منذ شَبَّتْ الحربُ تسعى بانكسارٍ لروسيا سعيً أفعى
 مع بني جنسها أملتْ ضلعاً وأصاحتْ لِمَا دَعَوْها سمعاً
 طوع أمر الموسوس المفتون^٥
 ونقولا المسكين ظنَّ عروسه مَلَكًا في الإخلاص أو قَدَيْسَه
 وهي كانتْ من أصلها إبليسَه ثمَّ صارت في قصره جاسوسَه
 من جنود الطاغوت^٦ «رَسْبوتين»
 فتماذتْ في النزغ عرضاً وطولاً وبني الرُّوس أشبعتْ تضليلاً
 ثمَّ لما زادتْ بهم تنكيلاً عُدَّ عنها قرينها مسئولاً
 فاتَّقَوْا شرَّها بخلع القرين
 بعدما أسقطوه شادوا وزارةً أسمعونا عنها أسرَّ بشاره
 أَمَلُوا أنها تكون منارةً وبها روسيا تُعاضُ خسارةً
 كابَدَتْها من «رَسْبَتَيْن» اللعين
 وإذا قوة الوزارة خارتْ وإلى الضعف والتراخي صارتْ
 ثمَّ مادتْ أركانها وانهارتْ وعلى إثر ذاك فوضى ثارتْ
 ثوران الخِصَمِ^٧ في كانون
 كان عنها «كرنسكي» المسئولاً وإليه تُعزى الرِّزايا الأولى
 فهو قد كان للوزارة غولاً وبه بات عقدها محلولاً
 وبه انهَدَّ صرحها عن يقين
 وإليه الجنودُ والعُمَلا كان بالمكر والدهاء استمالا
 ولهم زَيْنُ الخبيثِ المحالا وعليهم كما أراد احتالا
 وسباهم بسحر لطف ولين
 وبهم في جهاده شدَّ أزره فاتمُّوا على أعاديه نصره

^٥ يُراد بالموسوس المفتون: الراهب رسبوتين الشهير.

^٦ الشيطان وكل مذل.

^٧ البحر.

وله في الورى استطارَتْ شهرةٌ وغدا الأمر في بني الروس أمره
يقتضيه بلفظٍ كافٍ ونونٍ
فتَنَ الجيشَ واشترى الفلأَحَا إذْ له نهَبُ الأغنياءِ أباحَا
وعلى الفورِ ذاك أَلْقَى السلاحَا وتلاه هذا فعاث وجاحَا
وابتلى الناس بالمُعَنِّي المُهينِ
كل هذا والمستبدُّ الغاصبُ رائغ بينهم رواعِ الثعالبِ
ولذيل الرخاء والرغد ساحبُ آخذًا بالشمال أهل المناصبِ
وعلى الجيش قابضًا باليمينِ
حاد عن منهج الصواب الصريحِ عامدًا مطلقًا عنان الجموحِ
وازدري رأي «كرنلوف» النصحِ وتمادى مسترسلًا في الطموحِ
مُعرِضًا عن ذاك الحكيم الأمينِ
لم يُعزْ نصح «كرنلوف» اهتمامًا وعلى غيِّهِ أَصَرَ وداما
وعن الفوضى في البلاد تعامى وأخيرًا لَمَّا التلافي راما
لم يَسْعُه ولا رأي من مُعينِ
وعليه «لنين» ثار وكرًا وله «البلشفيك» شدُّوا أزرَا
وأذاقوه في الهجوم الأمرًا فتخلَّى عن الدفاع وفرًا
كبغاثٌ^٨ يفرُّ من شاهينِ
وخلا الجوُّ ثَمَّ للأوغادِ يستبدُّون أيَّما استبدادِ
فتمادَوْا في العيث والإفسادِ واستلاب الورى وقتل العبادِ
واقترفوا خُطة الرجيم «لنين»
جاهروا بالإخاء للأعداءِ وقضُّوا بالعداءِ للحلفاءِ
وعلى نكثهم عهود الولاءِ أجمعوا راغبين عن إيفاءِ
ما على روسيا لهم من ديونِ
وبهم روسيا العزيزة ذلَّتْ وبها أكبر المصائب حلَّتْ
فتلاشت قوَّاتها واضمحلتْ ثمَّ خارت أعضاؤها وانحلَّتْ

^٨ أحد صغار الطير.

وحكّت في الخريف أوراق تين
عقدوا صلحهم مع الألمان بهوان ما بعده من هوان
فيه خرّوا لهم إلى الأذقان واستطابوا الخنوع كالعبدان^٩
طمعاً في الرضوان من نيرون^{١٠}
هكذا «البلشفيك» كادوا الروسا وعليهم جرّوا الشقا والبوسا
ومن الذلّ جرّعوهم كئوساً وإذا ما الأذنان صارت رءوساً
فاجلسي يا أقدام فوق العيون

^٩ جمع عبد.

^{١٠} غليوم.

الفصل السادس والعشرون

تحية لبنان

موشح على نغم «حنيتنا يا حنيتنا»

لازمة

حيّ عَنَّا يا نسيم الوطنَا فلقد ذبنا عليه شجنَا

دور

من ضفاف النيل حنَّتْ للشَّامِ أنفُسُ تُهدي على البُعْد السلامُ
لا تَلُمَّها يا عذولي هل يُلامُ مَنْ سلا الدنيا وحبَّ الوطنَا؟

دور

من رُبى الأهرام للأرز صبا مغرماً يذكُرُ أيامَ الصِّبا
في ربوعِ أهلها أيدي سبا ذهبوا والبؤس فيها استطونا

دور

يا ربوعًا كلما دار لها في فمي ذكرُّ شجاني ولها
عنك قلبي قطُّ يومًا ما لها كيف أَلهو عنك يا كلَّ المنى

دور

أنت يا لبنانُ معشوقي القديمُ وفؤادي بك لم يبرح يَهِيمُ
وإلى مَنْ فيك من أهلي مُقيمُ ذُبْتُ شوقًا والتِّياغًا وضُنَى

تاريخ الحرب الكبرى شعراً

دور

طَوَّدَكَ السَّامِيُّ الدُّرَى الْفَخْمُ الْمَهِيْبُ تَحْتَهُ سَفْحٌ عَلَى وَادٍ خَصِيْبٍ
كَلِمَا أَذْكَرَهُ عَنِّي تَغِيْبُ هَذِهِ الدُّنْيَا وَأَنْسَى مَنْ أَنَا

دور

فِيكَ أَحِبَّابِي الْأَعَزَّاءُ الْكَرَامُ ضَنْكُهُمْ عَنْ وَصْفِهِ ضَاقَ الْكَلَامُ
فَمَتَى عَنْهُمْ يَنْجَابُ الظَّلَامُ وَيُنَالُونَ الْهَنَا بَعْدَ الْعَنَا

دور

عَنْ قَلِيلٍ سَنَرَى هَذَا النَّدَا مُسْتَجَابًا غَيْرَ مُتْرَكٍ سُدَى
وَإِذَا السَّارِي رَأَى النَّجْمَ بَدَا صَاحِ يَا قَوْمُ ابْشُرُوا الصَّبْحُ دَنَا

الفصل السابع والعشرون

مناجاة لبنان

موشح على نغم «يا غزالي كيف عني أبعدوك؟»

لازمة

وطني ناجاك عن بُعد بنوك وعلى ذكراك داموا ما نسوك

دور

شوقهم باق على رغم البعاد كل يوم في نمو وازدياد
وإذا ألفوك محتاجاً لفاد واستطاعوا عرضوا أن يفتدوك

دور

كلما هب نسيم عطر نكروا لبنانهم واستعبروا^١
وبهم هاج الجوى يستعر كقتاد^٢ لافح اللذع يشوك

دور

وطني لبنان يا شيخ الجبال يا ملك الحسن يا ربّ الجمال
راق في وصفك لي نظم اللاّ ولها غر معانيك سلوك

^١ جرت دموعهم.

^٢ شجر له شوك كالإبر، ولافح اللذع: أي ذو لذع محرق.

دور

وطني ما أنت أرضاً بل سما جنّة كوثرها يُروي الظما
ولجرح القلب يغدو بلسماً ورداء البرء للمُضنى يحوُّ

دور

جلّ مَنْ زانك بالوجه الجميل والنسيم العطرِ البرد البليل
نفحةً من طبيه تشفي العليل وإلى استنشاقها تصبو الملوك

دور

وطني ماؤك شهدٌ أو رحيقٌ وحصى واديك درٌّ أو عقيقٌ
وإلى ناديك قد سدّوا الطريقُ وعلينا منعوا فيه السلوكُ

دور

كنتَ تزهو برياضٍ وحقولُ ممرعات في جبالٍ وسهولُ
وعليها إذ سطتْ أيدي المغول^٣ مَنَلُوا فيها وقفراً غادروكُ

دور

وطني مهما يطلُ هذا الفراقُ فقريباً سوف يتلوّه تلاقُ
ولفجر الحقّ في الشرق انبثاقُ يتجلّى ماحقاً ليلَ الشكوكُ

^٣ الأتراك.

^٤ نكّلوا.

زحف الجيش البريطاني من جنوب غزة إلى شمال القدس

في ٦ مارس سنة ١٩١٧ هاجم البريطانيون الأتراك في جنوب فلسطين، فأكروهم على التقهقر من خط خان يونس والشلال إلى خط غزة وتل الشريعة، وفي ٢٦ و ٢٧ منه دارت معركة شديدة في ضواحي غزة لم يظفر فيها الجيش المهاجم بطائل، وفي ١٧ و ١٨ و ١٩ إبريل نشبت معركة أخرى حول غزة أسفرت عن تقدّم البريطانيين واستيلائهم على تل شمشون وهضاب جبل المنطار الجنوبية.

وفي أوائل شهر يونيو تعيّن الجنرال السر أدمند أللنبي^١ قائد الجيش البريطاني الأول في فرنسا خلفاً للجنرال أرشيلدمري قائد الجيوش البريطانية في مصر وفلسطين.

وفي ٣١ أكتوبر سنة ١٩١٧ أصدر الجنرال أللنبي أمره للجيش البريطاني بالهجوم على ميسرة الأتراك بعدما أوهمهم أنه هاجم على ميمنتهم، فاستولوا على بئر سبع، ثم عطف على غزة ففتحتها عنوة في ٧ نوفمبر، وشرع يطارد الأتراك المنهزمين شمالاً، ويأسر رجالهم ويغنم أسلحتهم ومعدّاتهم. وفي ١٠ منه بلغت طلائع البريطانيين أشدود، وفي ١٣ منه استولوا على تقاطع سكة حديد بئر سبع وسكة يافا والقدس، وفي ١٥ منه احتلوا الرملة واللد، وبلغ مجموع الذين أسروهم تسعة آلاف، وفي ١٧ منه احتل فرسانهم يافا، وفي ٩ سبتمبر سلمت القدس، وظهر يوم ١١ منه دخلها الجنرال أللنبي رسمياً ومعه قواد الفصائل الفرنسية والإيطالية والملحقون العسكريون الفرنسي والإيطالي والأميركي، وجميعهم مُشاة على الأقدام.

^١ وقد ترقى الآن إلى رتبة «فيلد مارشال»، ومُنح لقب «فيكونت» و ١٥٠ ألف جنيه.

وبلغ مجموع الذين أسرههم البريطانيون ١٢٠٣٦، بينهم ٥٦٢ ضابطاً، ومجموع ما غنموه ٩٩ مدفعاً كبيراً، و ١١٠ مدافع سريعة، و ٧٠٠٠ بندقية و ١٨٣ مليون خرطوشة، و ٥٨ ألف قنبلة، وغير ذلك من الذخائر والمعدات.

قم انظر تجد شارب الليل طر^٢
 وبز أخاه النهر المتوع^٢
 وبالطول باهي وتاه على النـ
 وهذا يدلُّك أنَّ الخريفَ
 أجل حلَّ ضيفُ الخريفِ الثقيلِ
 وكالصيفِ عصرُ الشباب الذي
 أجل جاء فصل الخريف وما
 ألسَ ترى شمل أوراقها
 وحفَّت بها وحشة لم تدعْ
 وحدَّت على الصيفِ فاقدةً
 رأَتْ في وجوه الطيور انقباضاً
 نذيرَ بضنكِ الشتاء الذي
 طليعته ظلمةٌ إن دجَّتْ
 يمدُّ يديه بها مدلجُ
 ورعدٌ يزمجرُ من حوله
 وودقٌ يسحُ بأغزر ما
 وللزمهرير المنيح على الـ
 ومن ذا وذاك وذلك في
 يهدده خطر الموت جوعاً
 وشكواه من دائه حيث لا

فأدرك مما ابتغاه الوطرُ
 وكالليث صالَ عليه وكرُ
 هار الذي بات يشكو القصرَ
 على الصيفِ شدَّ الهجوم ففرُ
 فلم يبقَ للصيفِ إلَّا السفرُ
 يغيب إذا ما المشيب حضر
 عليه يدلُّك مثل الشجرِ
 تشتتَ والعقد منها انتثر
 لأنس خمائلها من أثر
 له فقد سار ضياءَ القمرِ
 به كلُّ حيٍّ سواها شعر
 لنيرانه في الخريف شرر
 فللنور من أثر لا تذر
 تلمسَ أعمى شديد الحذر
 وبرقٌ يلي خاطفًا للبصر
 يُقال له في الشتاء مطر
 أضالع وخزٌ كوخز الإبر
 فلسطينَ شعبٌ يُقاسي الأمرُ
 وما من رغيْفٍ يزود الخطرُ
 دواءَ تفتت قلب الحجر

^٢ طلع.

^٣ الطول.

وَيُرْهِقُهُ ظِلْمٌ قَوْمٍ غَدَوَا بِهِ مِثْلًا سَائِرًا فِي الْبَشَرِ
فَلَوْ جَاءَ فَصَلَ الشِّتَاءِ وَلَمْ يَمُدُّ إِلَيْهِ يَدِيهِ الْقَدَرِ
لَأَرَدْتَهُ هَذَا الرِّزَايَا وَمَا عَلَى أَنْ يَجُوزَ مَدَاهَا قَدَرِ

* * *

وَقَبْلَ الشِّتَاءِ هَلَالُ الرَّجَاءِ لَهُمْ مِنْ خِلَالِ الْقَنُوطِ ظَهْرِ
بَدَا خَلْفَ غَزَّةٍ مُسْتَعْرِضًا وَدُرِّيئُهُ بِئْرَ سَبْعِ بَهْرِ
تَأَلَّقَ فِي الْقَفْرِ يَجْلُو الدَّجَى كَمَا يَفْعَلُ الْفَجْرُ عِنْدَ السَّحَرِ
أَضَاءَ بَنُورٍ بِدِيْعِ السَّنَى لِأَلْبَابِهِمْ حِينَ لَاحَ سَحَرِ
تَصَدَّى الظَّلَامُ لِإِخْمَادِهِ فَأَعْيَاهُ مَا رَامَهُ فَانْتَحَرِ
أَغَارَ عَلَيْهِ الْخَمِيسُ الَّذِي لَهُ مِنْ مَفَاوِزَ سِينَا دَحَرِ
جَلَا التَّرْكُ عَنْهَا وَجَيْشُ «مَرِي» تَدَفَّقَ فِي إِثْرِهِمْ وَانْهَمَرِ
فَأَغْرَقَهُمْ سَيْلُهُ وَلَهُمْ بِطُوفَانٍ فَتْكَ وَبِطْشٍ غَمَرِ
وَفِي بئْرَ سَبْعِ وَغَزَّةٍ أَلْقُوا عَصَا فَرْهُمْ وَاسْتَخَارُوا الْمَقْرَ
وَلُمُّوا هُنَاكَ شَعَثَ الرِّجَالِ الـ أُلِيَ مَلِكُ الْمَوْتِ عَنْهُمْ عِبَرِ
وَزَادُوا عَلَيْهِمْ كِتَائِبَ هَبَّتْ مِنْ الشَّامِ مَسْرَعَةً بِالسَّفَرِ
وَشَادُوا الْمَتَارِيسَ مِنْ خَلْفِهَا الـ خَنَادِقُ مَوْصُولَةً بِالْحُفْرِ
وَفِيهَا أَقَامُوا وَهُمْ مُسْتَعْدُّو نَ أَنْ يَدْفَعُوا الْخَطَرَ الْمُنْتَظَرِ

* * *

وَلَكِنَّ هَذَا التَّحَوُّطُ لَمْ يَكُنْ كَافِيًا لِقَضَاءِ الْوَطْرِ
وَهَذَا الْمَعْدَاتُ لَمْ تُجِدْهُمْ فَتِيلاً وَلَا جَبَرَتْ مَا انْكَسَرَ
وَلَمْ يَسْتَطِيعُوا تَوَقِّيَ ضَرْبِ عَلَيْهِمْ كَالصَّاعِقَاتِ انْحَدَرَ
رَمَاهُمْ «الْلَنْبِي» بِهِ فَأَصَابَ الـ مَحْزَرٌ وَعَزَّ بَنِيْلُ الظَّفَرِ
مِنْ الْغَرْبِ نَاجِزَهُمْ مُوَهَّمًا لَهُمْ أَنْ غَزَّةَ مَرْمَى الْمَكْرِ
فَخَفُّوا بِغَزَّةٍ يَحْمُونَهَا وَعَنْ شَرْقِ غَزَّةٍ غَضُّوا النِّظَرَ

ومن حولها منطق^٥ الحصر زُرَّ
عليها لوا الانتصار نشر
مطاردة الهاربين حسر
يببلغ غزّة صدق الخبر
جميع الجهات عليها زار
ببحر بموج الكماة هذر
رواسٍ كأنّ بها البحر برّ
ومن ذلك الجيش نار سقر
جبال وقلب الصخور فطر
ومن طعنات الجيوش أحرّ
بغزّة ليس لهم من مقر
وراموا سلامتهم بالمفر
فأردى وأثأى^٦ بهم وأسر
فلسطين من ظالمها التتر^٧
شمالاً وشرقاً وغرباً صدر
على الخانة الغادرين شهر
ومن قبلها تخم يافا عبر
عدوّاً طغى وبغى وفجر
«جمال» وواصلها من هجر
على جرع مرّ العذاب صبر
تبدّوا قروناً بها واندثر
عتا وعصا الله فيما أمر
تعمّد إنكارها وكفر
أمانة بل خانها وغدر

وكرّ «الأنبي» على بئر سبع
ومن قبل أن يُنجدوها رأوه
وعن ساعد الجد والسعي في
وخفّ شمالاً وغرباً لكي
وطوّقها بالأسود ومن
من البرّ شرقاً طما وجنوباً
وغرباً من البحر كرّت جوار
وحاكت على غزّة النار منها
ومقدوفها حول غزّة دكّ الـ
شكا الترك من ضربها أيّ حرّ
ولما رأوا أنهم بعد هذا
إلى الريح سيقانهم أطلقوا
وجيش «الأنبي» جرى خلفهم
وأمعن في فتحه مُنقِذاً
ومنه لسكانها فيضُ أمن
وفيه يده سيف بطش وفتك
إلى أن أتى القدس فاحتلّها
وباتت فلسطين آمنة
وعاد إليها الذين نفاهم
وفارق فيها الوجى قلب من
وعنها تقلّص ظلّ الذين اسـ
وهذا أخفّ عقاب لمن
ولم يذكّر نعمة الله بل
ويا ويل من لم يُراعِ عهد الـ

^٥ نطاق.

^٦ قتل وجرح.

^٧ الأتراك.

الفصل التاسع والعشرون

التحنان إلى لبنان

في هذه القصيدة يُبدي الناظم — بالأصالة عن نفسه والنيابة عن كل لبناني متغرب — شوقه وحنينه إلى لبنان، ويَصِفُ ما حلَّ بأهله في هذه الحرب من الرزايا، وما قاسَوْه على أيدي الأتراك من الظلم والإعنات والإرهاق والتعذيب والتجويع، وغير ذلك من الفضائع التي ابتَلَوْهم بها، وتخرَّموا حياة عشرات الألوف منهم. على أنَّ هذه الجرائم التي تقشعر لشدة هولها الأبدان لم ينحصر ارتكاب الأتراك لها في لبنان، بل تعدَّاه إلى كثيرٍ من مدن سورية كبيروت وطرابلس وغيرها من البلاد التي لم تكن حالتها أكثر احتمالاً من حالة لبنان.

ولئن أمرتَ فقد أمرتَ مُطيعاً
فحواه ينشرُ حيث حلَّ مُذيعاً
هذا وفيه يعملون جميعاً
أنَّ يطمئنوا أنَّ أبوهم ريعاً
فلذات أكبدهم تذوب نزوعاً^١
لا يفرغون لغيرها موضوعاً
وتسلُّ من جفون النئوم هجوعاً
نبغي إليها في سواك رجوعاً
وتشَبُّ ما بين الضلوع ولوعاً
يهتاج فينا بالأسى متبوعاً

لبَّيك يا وطني دعوتَ سميعاً
هذا شعارُ بنيك فيك وكلهم
كلُّ على حدةٍ يكرِّر قولهم
حاشى لهم وهمُ أبرُّ بني الورى
وأعيذهم أن يذكروك ولا أرى
ذكراك ملء شفاههم وقلوبهم
تبتزُّ من جنب المناعم راحةً
ذاكرak تُقَصِّينا عن الدنيا ولا
ذكراك تُذَكِّي في الجوانح لوعةً
شوقاً وتحناناً إليك كلاهما

شوقاً وتحناناً إلى شيخٍ به نعنيك يا جبلاً أشمَّ منيعاً

* * *

لبنان طودك صرح عزَّ رَوْقُه يزداد رغمَ مُقاوميك متوعاً
وبنوك أقمار الهدى أنَّى انتحتُ يترقَّب الساري لهنَّ طلوعاً
وعلى الإقامة في أعزِّ مراتع الد نيا نفَضْلُ في حماك رتوعاً
لبنان مَنْ لي أن أراك فيشتفي قلبٌ غداً بلَظَى النَوَى مَلْدُوعاً
لبنان تيمَّني هواك وسامني في بعدك التبريح والتلويحا
أُرْضِعْتُهُ طفلاً وإنِّي لم أزلْ فيه على رغم المشيب رضيعاً
وأظُلُّ منك مدى حياتي عاشقاً حُسناً تبارك مَنْ براه بديعاً
حُسناً أراه فيك مطبوعاً وفي ما دون وجهك زخرفاً مصنوعاً
وعلى الشعور به طُبِعْتُ فقل لِمَنْ لم يَدِرْه سَلْ شاعراً مطبوعاً
في غير لبنان الحياة ربيعها يمضي بفصل خريفها مشفوعاً
لكنها فيه شبابٌ دائمٌ وفصولها أبداً تظلُّ ربيعاً

* * *

يا أيها الجبل الذي يُرضي الردى عزّاً ويأبى في الحياة خنوعاً^٢
أنِّي أطلُّ عليك يا لبنان من جوَّ التصوُّر ناظرًا وسميعاً
فأرى وأسمع فيك ما أهواله تلقي على الصخر الأصمَّ صدوعاً
أجد الشقاء على الديار مخيمًا واليأس في عرصاتِها مزروعاً
والضنك يُوْهي الأقوياء فتفتك الـ أمراض فتكًا بالضَّعاف ذريعاً
والجوع خلف الداء مَكْمَنُه فَمَنْ لم تُرِدْهِ الأدواء يقضي جوعاً
وكلاهما قتلاه — يا أسفي على قتلاه! — يُعْبي عدهم مجموعاً
ذا بعض ما عيني تراه وكلُّه تلقاه أفزع ما تراه فظيعاً
وأشدُّ منه عليَّ صوتٌ وقَّعه كالسهم بل منه أحدٌ وقوعاً
متصاعدٌ من كل فجٍّ حاملٌ شكوى يُرجِّعها الصدى ترجيعاً

شكوى ألوف فيك موردها الردى
شكوى تعي الأنثا والزفرات والـ
أنثا مرضى ينزعون ضنى ولا
أنثا من يتضورون ولا يرو
وتنهّدات الأمهات يزيدها الـ
يبكين أبناء وآباء وأز
إن لم يُغثها المنقذون سريعاً
حسرات والتعذيب والترويعا
يجدون طباً يُبرئ المَوجوعا
نَ لحرّ ما يشكون منه نُقوعاً^٣
أيتام والمترملات شيوخاً
واجاً ويذرّفن الدموع نجيعاً

* * *

أما الزفير ففي حشاك يئز يا
حنقاً على من ضايقوك فأخرجوا
نكثوا العهود وقيدوك وما رعوا
وضعوك وهي خليقة الظلام أن
وعلى الخضوع لهم قسرت وكنت لا
وعلى ربوعك والحقائق سلطوا الـ
والدور أخلوها وكنّ أواهلاً
وأثوا فضائع تقشعر لهولها الد
أفبعد هذا كله يصفو لنا
أم هل تلين لنا بمصر مضاجع
كلّا! وليس لنا الشراب بسائغ
إلا إذا الظلمات عنك تقشعت
فينال حينئذ بنوك مرادهم
ويرون فيك لواء عزك مثلما
والله ندعو أن يكون لسؤلنا
شيخ الربى ويحز منك ضلوعاً
بالظلم صدرًا منك كان وسيعاً
بوثيقة استقلالك التوقيعا
يضعوا الرفيع ويرفعوا الموضوعا
تختار إلا للإله خضوعاً
إزهاق والتدمير والتقليعا
والرؤس أذوّه وكان مريعاً
نيا ويضطرب الجماد هلوفاً
عيش وقلبك مُفعم تفجيعاً
ونراك للنوب الشداد ضجيعاً
أبدًا ونأبى للطعام نجوعاً^٤
ووردت من بعد الأوام نقيعاً^٥
ويكفّفون من العيون دموعاً
عهده قبلًا خافقاً مرفوعاً
هذا مجيباً للدعاء سميعاً

^٣ قطع العطش.

^٤ خصيياً.

^٥ استمراء.

^٦ الماء العذب البارد.

الفصل الثلاثون

هجوم ألمانيا والنمسا على إيطاليا

لَمَّا هجم الجيش الرُّوسي بقيادة الجنرال برسيلوف على شرق النمسا في صيف سنة ١٩١٦؛ اشتدَّ ساعدُ الإيطاليين، فاستأنفوا هجومَهم على النمسيين في أوائل شهر أغسطس من تلك السنة، وأخذوا يدفعونهم أمامهم ويستردُّون ما خسروه في هجوم النمسيين عليهم، وفي أوائل نوفمبر كسروا النمسيين في نجد الكارسو كسرة كبيرة، وبلغ مجموع الذين أسروهم منهم منذ أوائل أغسطس ٤٠٣٦٣، وفي ١٦ مايو سنة ١٩١٧ هجموا على النمسيين في الساحة اليوليانية، فاستولَّوا على مواقعهم فيها، واستأنفوا الهجوم في ٢٤ و ٢٥ و ٢٦ منه، فاخترقوا خطَّ العدو من كاستانيفنزا إلى البحر، وبلغ مجموع الذين أسروهم ٢٣٦١٨. وفي ٢٠ يوليو هجموا على نجد أسياغو، واستولَّوا على عدة مواقع حصينة، ثمَّ هجموا في ٢٠ أغسطس على ساحل الأيسونزو من مونتي نيرو إلى البحر على خطِّ طوله ٦٠ كيلومترًا، وعبروا النهر واخترقوا صفوف النمسيين بين بلافيا والبحر، واستولَّوا على جبل سنتو، وأسروا عشرين ألفًا، وفي ٢٧ منه تقدَّموا في نجد بنستزا بعد معركة هائلة، وفي ٢٨ منه استولَّوا على جانب من جبل سان جبريال ثمَّ احتلُّوه كله. وبلغ مجموع الذين أسروهم إلى ٥ سبتمبر ثلاثين ألفًا، وظلُّوا يتقدَّمون شرق غورتزيا إلى يوم ٢٥ أكتوبر، حين هجم عليهم النمسيون والألمان هجومًا غنيًّا أكرهوهم فيه على الارتداد عن جميع المواقع التي احتلُّوها، وزادوا على ذلك أن تقهقروا داخل بلادهم عن عدة مدن وحصون إلى أن أنجدهم الفرنسيون والبريطانيون وشدُّوا أزرهم شدًّا مكَّنههم من الوقوف في وجوه مطارديهم، وقد نشأ هذا كله عن تخاذل جيشهم الثاني.

حتى متى هذي الوغى الفاجعة
 حتام لا تنفك نيرانها
 هذي ثلاث من سنيها مضت
 ولم تزل ألمانيا تحسب الد
 كأنها في الأرض صارت هي الـ
 كأنها بالدم مفتونة
 تُجلُّه ليست بهيَّابة
 أبطرها أن غادرت روسيا
 وزادها الطاغى طموحاً إلى
 وعندما حانت لها ضربة
 جرَّت عليها جيشها يعضد الذ
 كرَّت لسفك الدم ظمأى وللـ
 كرَّت وسامت جيش إيطاليا الذ
 فاضطّر أن يرتدّ عن موقع
 وأكرهت باقي الجيوش على الذ
 وغادرت ما دوّخته من الذ
 واستحوذ الذعر على جمعها
 وشد غازوها الهجوم على
 فلم يسعها صدّ تيارهم
 ونكّست أعلام نصر على
 وأصبحت مصفوعة من لدن

مستلّة أسيافها القاطعة
 مشبوبة ألسنها دالعة
 ونحن في حجّتها^١ الرابعة
 نيا بمن فيها لها تابعة
 آمرة الناهية الوازعة
 فهي إلى إهراقه نازعة
 مغبّة^٢ فيه ولا جازعة
 بنفسها جائدة^٣ نازعة
 إيطاليا في فتحها طامعة
 تخالها القاضية القاطعة
 ممسا وشنت غارة رائعة
 إثنان في أعدائها جائعة
 اني ضرباً ناره لاذعة
 ضاقت عليه أرضه الواسعة
 كوص معه فانثنت راجعة
 ممسا لمرّ القهقرى جارية
 فاضطربت أفرادها هالعة
 ساقاتها الذائدة الدافعة
 فأدبرت ناكصة هارعة
 أعدائها كانت لها رافعة
 قوم لهم كانت هي الصافعة

* * *

فيا لها من نكبة كالقضا اند
 قضت على إيطاليا واقعة

^١ سنتها.

^٢ عاقبة.

^٣ قاربت الموت.

وكاد يُعْيِي خطبُها راقعَه	من هولها اهتزَّت أساساتها
سمومُ فوضى روسيا الناقعة	وأوشكت أن تتفشَّى بها
من كلِّ شهم حازم باقعةٌ	لولا ثباتُ شدِّ بنيانها
جادت بها أحلافها سارعة	ونجدة فارجة كربها
بقوة زاجرة رادعة	حليفاتها شدَّتْ أزرها
راغت على أعدائها ماصعةٌ	كلتاها مدَّتْ إليه يدًا
بعزيمة قلب الصِّفا صادعة	جيشان جيش من فرنسا انبرى
عظمى جرى في أثره شافعة	وترًا وجيش من بريطانيا الـ
دريئة ^٦ عاصمة مانعة	كلاهما كانا لإيطاليا
لها وردَّت شرَّها قامعة	فيها توقَّت كيد ألمانيا
حليفة مفيدة نافعة	وهكذا ظلَّت لِمَن عاهدتْ

^٤ الرجل الشديد الدهاء والذكاء.

^٥ ضاربة.

^٦ ستارة.

الفصل الحادي والثلاثون

مصر والمصريون

مقدمة

حمدُ ربي المهيمن المنان
وبتأييد عرشه السلطاني
فضل والنَّيل والنَّدَى من ثانٍ
لَعَرُوسُ الأمصار والبلدانِ

خيرُ ما يُحسن انطلاقُ لساني
وابتهالي له بحفظ «فؤاد»
«أحمد» الأول الذي ما له في الـ
والتغني بمصر إذ إن مصرًا

مصر أم الدنيا

ليس في الكون مثلها من مكانٍ
بدءٍ سبغًا في قالب الإتيقانِ
ليس يُبْلِي جديده المَلَوَانِ
فاعلموا أن مصر أبهى الجنانِ
ن ونخلٍ وغيرها زوجانِ
وجنَى الجنتين من مصر دانِ
أرض شادته باقيًا يدُ بانِ
قوله: «كُلُّ مَنْ عَلَيَهَا فَانَ»

مصر أمُّ الدنيا كما لَقَّبوها
سبكتُها يد الطبيعة منذ الـ
وكسنتُها يد المحاسن ثوبًا
وإذا الأرض كان فيها جنانِ
جنَّةٌ فيها من فواكه رمًا
كلُّ هذي قطوفها يانعات
وهي أمُّ الأهرام أقدم ما في الـ
مَنْ بَنَوْهَا فَنُؤا ليصدق فيهم

وصف جوُّها

ليس في الكون مثلها من مكانٍ
بصفاء الأديم واللَّمَعَانِ

مصر أمُّ الدنيا كما لَقَّبوها
أَيُّ جوٍّ كجَوِّها متحلٌّ

غَمٌّ عن مقلّة الشجّيّ العاني
وكفيلًا بصحة الأبدان
يف ما بالنّهى لبنت الحان
عزاءً لمهجة الأسوان
لفؤاد المسهّد الولهان
بالداري كالروض في نيسان
وجنتيّها بأبدع الألوان

صفوه يشرح الصدور وينفي الـ
تتملّى منه النسيم عليلاً
وله في نفوسنا في ليالي الصـ
فيه عن ثغرها الغزالة تفتّر
ويليها ليلاً أخوها سميراً
وإذا غاب فالسماء تجلّى
قاشعاتٍ عنها الدّجى واشياتٍ

وصف واديهها

ليس في الخصب مثلاً من مكان
ها النضير الوفر الجني الرّيان
وحصاه أنقى من المرجان
مثلما كان من قديم الزمان
حصر معدودة الدّ المجاني
أبيضُ الزهر فوق أخضر حان
عاً عليه منثور حبّ جمان
ليس فيه داعٍ إلى الكتمان

مصر أمّ الدنيا كما لقبوها
أيّ وادٍ تحت السماء كوايد
تربّه التّبر بل من التّبر أغلى
كان مستودع الغنى وهو باق
ومجانيه وهي تجتاز حدّ الـ
ونراه في الصيف والقطن فيه
كبساط من الزّمرد مجمو
هو سرّ الإثراء في مصر لكن

وصف نيلها

ليس في الخصب مثلاً من مكان
جريه النّيرين في الحسابان
حافظُ برٍّ أمّه السودان
فكٌ معشوق أهل هذا الأوان
ليس يدعو للعشق والافتتان
ه وتهوّى جماله العينان
وإذا فاض فهو من عقيان
فٍ وشاف لغلة الظمآن

مصر أمّ الدنيا كما لقبوها
حسبها نيلها المبارك يحكي
ذلك النيل وهو والد مصر
كان معبود الأقدمين ولا ينـ
أي شيء في النيل غير شهّي
كلّ ما فيه يعشق العقل معنا
فإذا شحّ فهو ذوبٌ لجين
وهو في الحاليتين حاجاتنا كا

وكفاه وفأؤه فهو فيه
كلَّ عام يُهدي إلى مصرَ أغلى
ذاك وعدُّ عدَّائه الصيف والذئب
كلما أضرم الهجيرُ لظاه
أحمد النيل ناره بمفيض
وحباها بعد الأوام ارتواءً
وسقاها ما دونه كوثرُ الكر

مَثَلُ دائِرٍ بكل لسان
ما لديه بصورة الفيضان
ل ضمينُ الوفاء في العدان
لافحًا للنبات والحيوان
غامرٍ للبقاع والغيطان
وجلاها في حلَّة العمران
خ وصهبا معرَّة النعمان

وصف الأمن ورغد العيش فيها

مصر أم الدنيا كما لقبوها
أي قطر كقطر مصر صفاء الـ
كل من فيها في نعيم مقيم
كل من فيها طيب النفس مستند
يتفياً ما شاء دوح سلام
إنها مربُّع الرخاء ومجلى الـ
ومراحُ المعني المعنى ومنجا
وهي ليست حديثة العهد في إحـ
من قديم الزمان جلَّت وحازت
اذكروا إبراهيم لما أتاهما
فأجارته ثم أولته إكرا
وتلاه أعقابه قوم موسى
وأصابوا من ساكني مصر أنسا
ثم عادوا منها وظلُّوا إليها

ليس في الأمن مثلها من مكان
عيش والرغد فيه مضمونان
وهنا موطن الأركان
ر^١ بحصني حرية وأمان
وارف الظل باسق الأغصان
بشر والأنس مغنى الاطمئنان
ة المضيم المروع اللفان
راز هذا الفضل العظيم الشان
قَصَب السُّبْق في قرى الضيفان
جالياً عن حماه في كنعان
ما جديراً بأكرم الضيفان
إذ لهم طاب المكث في جاسان
نافياً عنهم وحشة الهجران
في أشد النزوع والتوقان

^١ مستظل.

هجرة المسيح والسوريين إليها

هارباً من مقتل الصبيان^٢
مُرْسَلاً من مدبر الأكوان
واحذري بالصبي غباً^٣ التواني
في اضطراب والقلب في خفقان
جوع والخوف والعناء تُعاني
ما ثناها في ذلك التيه ثان
ة حواشي عناية الرحمن
ها فحلت منها سويدا الجنان
ب فاستقبلته بالإذعان
ح صارت في قبضة الشيطان
ر من الشام بغية استيطان
يوم تَزَجَى أيانقُ الركبان

واذكروا هجرة المسيح صبيّاً
يومَ وافي جبريلَ مريمَ ليلاً
قائلاً قومي غادري بيت لحم
حملته العذراء والنفس منها
وانبرت تقطع القفار به والـ
واصلت بابنها المسير وعنه
وعليها من السماء مدلاً
وعلى مصر أقبلت واستضافت
وأقامت حتى دعاها ملاك الر
ورأت أن روح هيرودس السفّاً
وعلى أثرها كثيرٌ أتوا مصـ
وإليها نرى من الشام حتى الـ

هجرة السلام إليها

آنَ لَمَّا نبا به الخافقان
وجه حربٍ مشبوبة النيران
وإلى مصرَ جدّ في الإتيان
أثراً للحرب الزّبون العوان
لقباً أو يُضاف كالعنوان
أرض من هول الحرب في أحزان
هم يُقاسون من سغير الطّعان
س طراً في غصة الأشجان

وانظروا هجرة السلام إليها الـ
هَجَرَ الأرض كلها هارباً من
لم يجد ملجأً له غير مصرٍ
وبها حلّ حيثُ لم يرَ فيها
ومحلّ السلام أضحى لمصر
إننا منه في هناءٍ وأهل الـ
غير أنا لهم مؤاسون فيما
هل يسوغُ الهنا لنا وحلوقُ النـ

^٢ يراد بمقتل الصبيان هيردوس.

^٣ عاقبة.

لا ولا نطمئنُ إلا إذا ما الـ
هي حربٌ ثارتُ فعَمَّت رزايا
وطغى شرُّها فغَشَّى البرايا
فأذابت من الحديد قلوبًا
وألوفَ الألوفِ أَرَدَتْ وهم يا
وأحَلَّت دماءهم فجرَّت في الـ

حرب لُفَّت كالميت في الأكفانِ
ها وليست تنفكُ في ثورانِ
وهو باقٍ يشتدُّ في الطغيانِ
وأشابت مفارق الولدانِ
لهف قلبي من نخبة الشَّبَّانِ!
أرض هدرًا تسيل كالطوفانِ

وصف سجايا أهلها

مصر أم الدنيا كما لَقَّبوها
وبنوها هم منشأ الحُسْن فيها
فالسماء الحسناء أعطل ما في الـ
هكذا مصر إنَّ أحسن ما فيـ
وسجاياهم كلها ساحراتُ
انظروا لطفهم فهل من مبارِ
وامتيازُ المصريِّ باللفظِ أمرُ
وهو ذِيالك المشارُ إليه
ولقد قال للصبِّ حين رامتُ
إن تحدّثه تُلفِه لك يُلقِي
وإذا ما انتهى الحديث إليه
وأناه مستعذبًا مستطابًا
لفظه معدنُ الرشاقة والر
وهو فيه حلو الفكاهة والجدِّ
وكأن الألفاظ من فيه لحنُ
وإذا ما اصطفيته لك خِلا
يحفظ الغيب يُخْلِص الودَّ يرعى الـ
وله بالغريب رفقٌ يفوق الـ
يتلقَّاه إذ يراه بلقبِ
وبه يحتفي احتفاء صديقِ

ليس في الحسن مثلها من مكانِ
وجمال المكان بالسكَّانِ
كون لو لم يحلَّها القمرانِ
ها بنوها أولو السجايا الحسانِ
وبياني لها بديع المعاني
لهم في ميدانه أو مُدانِ
ليس في حاجة إلى برهانِ
أنه ألطف الورى بالبنانِ
أن تحدّاه لست من أقراني
سمعه بالرضى والاستحسانِ
صاغ منه الشنوف للآذانِ
غاية في الإبداع والإتقانِ
قة أمّا المعنى فسحر البيانِ
لعوب كالراح بالأذهانِ
أوقعته الأيدي على العيدانِ
كان أوفى وأصدق الخِلانِ
عهد يُغضي عن زَلَّة الأخدانِ
وصف عنه تحدّث المشرقانِ
وامقٍ عاطفٍ عليه وحانِ
بتلاقي صديقه جذلانِ

شكر السوريين لمصر والمصريين

من مزايا التفوق الإنساني	ذلکم بعض ما لأبناء مصر
فوق طوقي وليس في إمكاني	وبيان الباقي الكثير أراه
ببنيك الأمجد الأعيان	فافخري يا مصرُ العزیزة واسمِي
لك نُهدي جميله كلَّ أن	واقبلي من أبناء أختك شكرًا
ذاكروه بألسن الشكران	فضلك الجمُّ يا حُويله إنَّا
تسأليه يُجبُّ بأجلى بيان	كلُّ سوريٍّ في ربوعك إذ ما
وبنو مصر كلهم إخواني	مصرُ عندي عزيزة كبلادي
وحنيني إليك من إيماني	وثنائي عليك فرضي ونفلي

الخاتمة

رَ الأعزَّاء أجملُ العرفانِ	إنَّ عرفاننا جميلَ بني مصـ
والمؤاخة أعظمُ الإحسانِ	وإلينا إحسانهم بالتصافي
ما عليه خوفٌ من النسيانِ	ذكره خالدٌ وفضلٌ كهذا

الفصل الثاني والثلاثون

الهجوم الألماني الأخير في فرنسا

بعدما عقدت ألمانيا الصلح مع حكومة لنين في روسيا، واسترجعت معظم جيوشها منها، وغنمت ما تخلّى عنه الروس من المدافع والذخائر التي كان الحلفاء قد أمّدهم بها، وأكملت استعدادها للهجوم في فرنسا؛ شرعت فيه صباح يوم ٢١ مارس سنة ١٩١٨ على كل الخط بين نهر سكارب ونهر الواز، وباشرته بخمسين فرقة وراءها ٢٥ فرقة احتياطية، ومعها ألوف من المدافع الألمانية والبطاريات النمسية الضخمة البعيدة المرمى، فضلاً عن عشرات الألوف من المدافع السريعة؛ حتى إنهم نصبوا مدفعاً في كل ١٥ يرداً في شقة طولها عشرة آلاف يرد، ما عدا هواوين الخنادق، وفي أثناء هذا الهجوم أخذت مدافعهم الكبيرة تُطلق على مؤخرة البريطانيين، وعلى ٢٨ ميلاً من خطوطهم، وشرعوا يُطلقون القنابل على باريس من مدفع بعيد المرمى على مسافة نحو ٧٠ ميلاً. وفي هجومهم هذا لم يبالوا بالخسارة الهائلة التي كانوا يكابدونها، ولا حسبوا أقلّ حساب لحياة الألوف التي كانت نيران الحلفاء تتلقّفها كل يوم، بل وضعوا نصب عيونهم اختراق خطوط المدافعين والوصول إلى باريس بأية خسارة كانت قبلما تتمكن أميركا من إرسال جيش كبير ترجّح به كفة الحلفاء عليهم.

وما أبطنوا أنّ عبروا نهر السوم، وأكروهوا الحلفاء أن يتقهقروا أمامهم ويتخلّوا لهم عن كثير من المدن والحصون.

وفي ٢١ مارس وافقت الحكومات البريطانية والفرنسية والأميركية على تعيين المرشال فوش قائداً عاماً لجيوش الحلفاء.

وظلّ الألمان يجدّدون هجومهم بعد فترات قصيرة، ويتقدّمون جنوباً وغرباً، وجيوش الحلفاء يخلّون المواقع بعدما يتقاضون عنها أعلى ثمن من دماء الرجال ومُهَج الأبطال. ودامت الحال جارية على هذا المنوال، والمرشال فوش باقٍ على ما عُهد به من رباطة

الجأش وثبات الجنان وصدق العزيمة، يكرُّ بجيوشه المدافعة ويُثخن في المهاجمين، ثمَّ ينثني متراجعاً موهماً أعداءه أن احتياطيه فرغ أو كاد، وأن عزيمة جيوشه على الدفاع صائرة إلى النفاد، ومما يُروى عن ثبات عزمه وبُعد نظره وشدة ثقته بصحة تدابيرهِ، أنه لَمَّا دنا الألمان من أُميان، وخيف عليها من السقوط في أيديهم، قال: «إن إميان في ضمانِي». وهكذا كان؛ لأنها ظَلَّتْ في أمان، ولم تطأها رجلٌ أحدٍ من الألمان.

وفي ١٥ يوليو هجم الألمان هجومهم الخامس بستين فرقة على مدى خمسة وخمسين ميلاً، بين ريمس وشاتوتيارِي، فتقدَّموا جنوب ريمس الغربي، وعبروا نهر المارن، واستولوا على عدة قُرَى في جنوبه، فوجفتِ القلوب واضطربت النفوس، واشتدَّ خوف الناس على باريس، ولكن ذلك كان خاتمة التقدم ونهاية الهجوم، ولم يَنَلِ الألمان منه سوى امتلاكٍ بقاعٍ دفعوا عن كلِّ شبرٍ منها أغلى الأثمان، وتحملوا في سبيلها خسارةً تقشعرُّ لها الأبدان، ثمَّ اضطروا أن يُجْلُوا عنها وهم يتعَثَّرون بذيول الخيبة والخسران.

قُمْ يراعي قُمْ أَطْعَنِي وَاكْتَبِ ما عليك الآن يُمْلِيهِ فَمِي

دور

سِرْ على القرطاس وارقمْ باهتمام وتَأَنَّ وانتباهٍ وحذرٍ
فلساني مستعدُّ للكلامِ ويدي تجري ولا تشكو الخدرِ
وَإِذْ ما وَسَّعَ القولُ المقامَ وأطلتُ الشرح لا تُبِدِ الضجرِ
واحتمل بالصبر عبءَ التعبِ وألن بالعزم جنب السأمِ

دور

صرَّ فوق الطُّرسِ وازمُرْ في يدي كحسام صلَّ في كَفِّي بطلٍ
كلما زدْتُكَ إرهاباً زدِ همّةً لا يعترِيها من مللٍ
وعلى الصعب استعن بالجلدِ وعلى اليأس تغلَّبْ بالأملِ
من حديدٍ أنت لا من قصبٍ فعلامَ خائفٍ من ثَلَمِ

دور

وصفٌ هذي الحرب أعياء البلغا وسبَّتْ أهوالها منَّا النُّهى
لا يرى الواصفُ في أغنى اللُّغى ما يفِي بالوصف طبق المشتهى

فإلى الآن نرى شرَّ الوغى مستجدًا كلما قلنا انتهَى
قلَّ من منَّا بها لم يُنكَبْ وبحامي جمرها لم يُوسَمِ

دور

نارَها الألمانُ عمدًا أضرموا واستطابوا لذعها واستعذبوا
وعلى خوض لظاها أرغموا حُلِفَا سَفَكَ الدماءِ اجتنبوا
وأخيرًا حين هيجوا أقدموا كأَسودِ تَنَدَرِي^١ إذْ تغضبُ
فعرى الدنيا قتامًا^٢ النُّوبِ والشقاءِ احتفَّ كلُّ الأُممِ

دور

كاد يمضي من سِنِيها أربعُ ولظاها لم يزلْ يتَّقَدُ
والألى في النصر كانوا قطعوا شعروا بالشكِّ فيما اعتقدوا
عند ما الرُّوس رداها خلَعوا ومع الألمان صلحًا عقدوا
وبه الأعداءُ جلَّ الأربِ أدركوا والرُّوسُ شرَّ النِّقَمِ

دور

وعن النمسا وعن ألمانيا خفَّ ضغطُ الخوفِ وانزاح الخطرُ
وغرورًا زعمتْ بلغاريا أنها بالغةٌ منها الوطرُ
وغدا التركيُّ معها شاديًا لأغانيِّ التهانِي بالظفرِ
كلهم يرشفُ راح الطربِ وهو عمًّا في غدٍ آتٍ عمِ

دور

وانقضى الثلثان من شهر أذارٍ وعلا من جوف باقيه الأنينُ
وجميع الناس باتوا في انتظارٍ ما لهم من غامض الغيب يُبينُ
وإذا الألمان قد ماطوا الستارُ في فرنسا حيث كروا هاجمينُ
علَّلوا النفس بقطف العنبِ قبلما يبلغ طورَ الحصرمِ

^١ مخفف تندرئ: بمعنى تندفع أو تطلع فجأة.

^٢ ظلام.

دور

وَأَتَمُّوا السَّعْيَ فِي هَذَا الصَّدِّ	تَخَذُوا أَهْبَتَهُمْ قَبْلَ الْهَجُومِ
قَذَفُوا بِالْجُنْدِ وَاسْتَقَاوَا الْعُدَّةَ	وَابْتِغَاءَ الْفَوْزِ بِالنَّصْرِ الْمَرُومِ
فِي بِلَادِ الرُّوسِ مِنْ بَاقِي الْمَدِّ	وَاسْتَرَدُّوا مَا لَهُمْ عِبرَ التَّخَوُّمِ
بَشَرُوا الْأَرْضَ بِسَحِّ الدَّيَمِ	وَإِذْ اغْتَرُّوا بِبَرْقِ خُلْبِ

دور

عَتَمَ التَّيَّارُ مِنْهُمْ أَنْ دَفَقَ	وَعَلَى الْجَيْشِ الْبَرِيطَانِيِّ مَا
مَارِجٌ لَوْ مَسَّهُ الْبَحْرُ احْتَرَقَ	وَتَلَطَّى حَوْلَهُ وَاضْطَرَمَا
فَرَقَ ضَحَّوًا بِهَا تَلَوَ فَرَقَ	لَمْ يُرْعَهُمْ مَا اقْتَضَاهُ مِنْ يَمَا
رَغْبَةً فِي فَوْزِهِمْ بِالْمَغْنَمِ	وَاسْتَلَانُوا كُلَّ خَشْنِ الْمَرْكَبِ

دور

طَمَعًا فِي فَتْحِ حَصْنٍ أَوْ بَلَدٍ	لَمْ يَبَالُوا بِالضَّحَايَا الْهَائِلَةِ
وَبِهَذَا الْأَمَلِ اشْتَدَّ الْجَلْدُ	أَمَّلُوا أَنَّ مِنْاهُمْ حَاصِلَةٌ
زَنْدَهَا لَمْ يَوْرِ وَالسَّهْمُ صَرَدَ	لَكِنْ الْأَمَالُ خَابَتْ فَائِلَةٌ
طَاشَ مَرْتَدًّا إِلَى حَيْثُ رُمِيَ	وَإِذَا سَهْمُ الْمُنَى لَمْ يُصَبِ

دور

عِنْدَ مَا خَطَّ الدِّفَاعَ اخْتَرَقُوا	غَرَّهُمْ فِي الْبَدءِ إِحْرَازُ النِّجَاحِ
وَضَحَاهُ ^٢ عَنْ قَرِيبٍ تَشْرَقُ	فَتَظَنُّوا أَنَّ فَجْرَ النَّصْرِ لَاحُ
وَبِتَقْدِيمِ الضَّحَايَا أَغْرَقُوا	فَتَمَادَوْا فِي اجْتِيَاكِ وَاكْتِسَاحِ
وَاسْتَخَفُّوا بِأَشَدِّ الْإِزَمِ	وَاسْتَهَانُوا كُلَّ صَعْبِ الْمَطْلَبِ

دور

وَاصِلُوا وَمَدَاهُ وَسَّعُوا	وَهَجُومٌ شَبَّ عَنْ أَنْ يُوصَفَا
عَنُودٌ بَعْضُ الصِّيَاصِي انْتَزَعُوا	وَبِعِزَمٍ فَالِقِ قَلْبِ الصِّفَا

فوزُّهم أَبْطَرَهُم والحلفا أوهموهم ضَعَفَهُم فانخدعوا
وإلى لُجِّ الرَّدَى المضطرب بسراياهم رَمَوْا عن أَمَمٍ

دور

عبروا الأنهرَ واجتازوا القُنْيَءَ دَوَّخُوا الآطامَ واحتلُّوا الحصونَ
وطئوا هامَ القرى والمدنِ وفَرَّوْا^٤ عرض الفيافي والحزونَ
جرَّعوا الأهليين صاب المحنِ وابتَلَوْهم بلظى ذلٍّ وهُونِ
عَذَّبُوا الأسرى وَمَن معهم سُبِي وأذاقوهم أَمْرَ الأَلَمِ

دور

كلُّ ذا والحلفا لم يُرْهَبُوا واستعدُّوا لاحتمال الشدةِ
واطمأنُّوا حين «فوش» انتخبوا لَاتَّقَا الغازين أقوى عُدَّةِ
قال عن «أميان» لَمَّا اقتربوا مِن جِماها إنها في عُهُدتي^٦
فَعَدَدْنَا قَوْلَهُ وَحَيَّ نَبِي عالمٍ في الغيب ما لم يَعْلَمِ

دور

بطلٌ لله هذا البطلُ! ما له في مجمع الأبطال ثانُ
وملايين الجنود امتثلوا وأطاعوا أمره طوع البنانُ
وإليه الحلفا إذ وكلوا أمرهم صَحَّ الخطا والصعبُ هانُ
وله قالوا جميعاً رَتَّبِ خطط الهيحاء فينا وارسمِ

دور

رَبُّ حَذَقٍ ودهاءٍ حيِّرا كلُّ أرباب الذكاء والرَّشْدِ
لم نجد أبعد منه نظرا لا ولا أبرع في حلِّ العُقْدِ
أوهم الألمان لَمَّا القهقرى عادَ أَنَّ الاحتياطيَّ نَفِدُ
وعلى جيشِ العدوِّ اللجبِ ليس يقوى ولذا لم يهجمِ

^٤ جمع قناة.

^٥ قطعوا.

^٦ ضمانتي.

دور

وعلى هذا الطريق الأمثلِ سارَ في خطته لا ينثني
كلُّ شبرٍ كان عنه ينجلي يتقاضى عنه أغلى ثمنٍ
يتلقَّى خصمه بالجيلِ ويتدبير المكرَّ المطعِنِ^٧
يتولَّى رُميَّه عن كثبٍ ثمَّ يلوي عنه كالمنهزمِ

دور

وقضى عشرين يوماً ومائةً وهو مُستنٌّ على هذا النمطِ
جاعلاً نهك الأعادي توطئةً لهجومٍ مثله لم يُروَ قطُّ
وإذ استوفى شروط التهيئة وعلى خاطره الله ربطاً^٨
أوقع الأعدا بأسوا منشبٍ وافتجاهم كالقضاء المبرمِ

دور

كان هذا عندما اشتدَّ الوجلُ وعلى باريس قد زاد الخطرُ
وإلى أرباضها^٩ الغازي وصلُ أو تدنَّى بعدما «المارن» عبُرُ
فانبرى الحامي لإحياء الأملِ ولقشع اليأس من جوِّ الفكرِ
وعلى الألمان بيض القُضبِ سلَّ يغشاهم كسيلِ عِرمِ

^٧ المكرُّ: الكرَّار. والمطعن: الكثير الطعن للعدو.

^٨ ألهمه الصبر وقواه.

^٩ ضواحيها.

الفصل الثالث والثلاثون

فتح سورية

في ١٨ سبتمبر سنة ١٩١٨ هجم جيش الجنرال اللنبي — المؤلف من هنود وإنكليز وسكوتلنديين وفرنسيين — على الأتراك في شمال فلسطين الغربي، فاستولوا على خط دفاعهم الأول والثاني، واحتلوا عدة قرى، وفي العشرين منه زحف الهاجمون شرقاً، وتقدموا شمالاً، فبلغوا العقولة فنبلس فالسامرة فمسعودية، واحتلت فرسانهم بيسان وجنين، وأسروا في ثلاثة أيام أكثر من ثمانية عشر ألفاً، وفي ٢٢ منه كانوا قد تمكنوا من تمزيق شمل الجيشين العثمانيين السابع والثامن، وأسروا أكثر من ٢٥ ألفاً وغنموا ٢٦٠ مدفعاً، وفي ٢٣ منه احتلوا حيفا وعكا والناصرية، واستولوا النيوزيلنديون على السلط. وكان الجيش العربي المربط في العقبة قد زحف بقيادة الأمير فيصل على ميمنة البريطانيين، فاحتل معان، وفي ٢٥ منه احتل البريطانيون الصويلح، والعرب جردون، والأستراليون طبرية وسمخ والسمرا، والنيوزيلنديون والأستراليون عمان، وفي ٢٨ منه عبر الأستراليون جسر بنات يعقوب، وبلغوا القنيطرة بعد الظهر، واحتل الجيش العربي درعا حيث اتصل بالجيش البريطاني وأسروا ١٥٠٠، وأصبح مجموع الأسرى خمسين ألفاً والمدافع ٣٢٥.

وفي صباح أول أكتوبر سلّمت دمشق وأسرى الحلفاء فيها وفي ضواحيها أكثر من ثمانية آلاف، وفي ٤ منه احتلوا مدينة صور، وفي ٦ منه مدينة صيداء ورياق وزحلة، وفي ٧ منه دخلت الفرقة الفرنسية البحرية مدينة بيروت، ووصل إليها الجنود الزاحفون من صيداء، وفي ١٣ منه احتلوا طرابلس، وفي ١٥ منه حمص، وفي ٢٠ منه حماة، وفي ٢٦ حلب الشهباء.

وهكذا تم فتح سوريا كلها في نحو ستة أسابيع، وبلغت المسافة التي قطعها فرسان الحلفاء في هذه المدة القصيرة أكثر من أربعمائة ميل، والأسرى الذين أسروهم نحو تسعين ألفاً.

وكان للجيشين العربيين بقيادة الأميرين فيصل وزيد شأنٌ يُذكر في هذا الفتح؛ فإنهما واصلًا الغارات على سكة الحديد الحجازية، وقطعا مواصلاتها غير مرة بنسف جسورها وتدمير محطاتها واقتلاع قضبانها، وفتكا بحامياتها، واستهدفا لكثير من المخاطر الشديدة، وفي الهجوم الأخير زحفا من درعا ومعان، وانضمّا إلى جيوش الحلفاء، كما تقدّم الكلام وشاركها في فتح بقية المدن الشمالية الشرقية.

كرّروا البشرى مرّةً بعد مرّةً	بين كل الوري بأفصح نبرةً
كرّروها على المسامع كي ما	يتوقّى بجرّدها القلبُ حرّةً
وأذيعوا في الخافقين صداها	يزرعُ البرّ ثمّ يجتازُ بحرّةً
وانثروا زهرها على الروض حتى	يتحلّى به وينظمُ زهره
وانفحوا الوردَ طيبها واجعلوه	ينتشي ^١ نفحه وينشقُ عطره
وأفيضوا ضياءها وانشروه	وأزونا في كل أفقٍ بدره

* * *

تلك بشرى بالنفس تُشرى وتسوى	لذّتي باستماعها ألف بدره
يقرأ المرءُ أيّها فيلّاشي	متنّها كربّه ويشرخُ صدره
إنها في جيد البشائر عَقْدُ	بل أراها في العقد أنفس دُرّة
إنها للنفوس طيبٌ وللا	زان شنفٌ وللنواظر قُرّة
وجبينُ الآمال أصبح منها	زاهراً مشرقاً بأيمن غُرّة
يتملّى السوريّ منها سروراً	إن يُكتمّه فهي تُفشي سرّه
ليس يقوى على بيان ابتهاج	عمّ منها ولو قضى فيه عمره

* * *

تلك بشرى الإنقاذ من ظلم قومٍ جرّعوا الشرق من أذاهم أمره

^١ يشم.

حَكِّمُوا فِيهِ كُلَّ عَبْدٍ زَنِيمٍ
وَيَسُومُ الْعَزِيزَ ذَلًّا وَيُمْنِي الْـ
تِلْكَ بَشْرَى إِطْلَاقَهُ بَعْدَمَا ظَلَّ
كُلَّ يَوْمٍ عَلَى بَنِيهِ الْأُلَى جَوْ
كَمْ شَهِيدٌ شَنْقًا قَضَى وَفَقِيدٌ
وَعَنْيٌّ فِيهِ قَضَى الْخَسْفُ^٢ لَا يَلْـ

كَانَ يُمَضِّي بِالسَّادَةِ الْغُرَّ أَمْرَهُ
حُرًّا بِالضُّيْمِ وَهُوَ يُصْلِيهِ جَمْرَهُ
قَرُونًا يَبْكِي وَيَشْكُو أَسْرَهُ
رَاً وَظَلَمًا غِيلُوا لَهُ أَلْفُ حَسْرَةٍ
مَاتَ سَجْنًا أَوْ ذَاقَ فِي النَّفْيِ خُسْرَهُ^٣
قَى لِدَفْعِ الطَّوَى^٤ مِنَ الْخَبْزِ كَسْرَهُ

* * *

جَاءَهُ الْغَوْثُ مِنْ لَدُنْهُ تَعَالَى
وَبَجِيشِ التَّحْرِيرِ جَيْشِ «الْنَّبِيِّ»
مِنْ فِلَسْطِينَ يَوْمَ كَرَّ اعْتَرَى الْأَلْـ
بِمِغَاوِيرَ كُلِّهِمْ يَخْطِفُ الْبَرْزُ
وَالْغَشُومُ الْمَهْتَاضُ^٥ إِذْ هَزَمُوهُ
أَسْرُوا مِنْهُ نَحْوَ تِسْعِينَ أَلْفًا

مُبْدِلًا بِالرِّخَاءِ وَالْيَسْرِ عَسْرَهُ
خَصَّ تَأْيِيدَهُ وَآتَاهُ نَصْرَهُ
سَمَانَ ذَعْرًا وَأَكْبَرَ التَّرْكَ كَرَّهُ
قَ سَنَاهُ وَيَسْبِقُ الْمَرْءَ فِكْرَهُ^٦
قَوَّضُوا عَشَّهَ وَهَدُّوا وَكْرَهُ
وَأَذَاقُوهُ صَابَ أَشْأَمِ كَسْرَهُ

* * *

سَنَحَتْ ثُمَّ فَرَصَةُ لِبْنِي الْغُرِّ
قَادَهُمْ ذَلِكَ الْأَمِيرُ ابْنُ أَسْمَى
شَاهِرًا بِبَيْمِينِهِ لِسُمَاهِ^٧
هَبَّ لَمَّا الْأَتْرَاكُ جَهْلًا أَبَاهُ
وَمِنْ الْحُمُقِ أَنْ تَرَوْمَ اقْتِحَامَ الْـ
وَشِمَالًا مِمَّا جَنُوبَ مَعَانٍ

بِ فَسَدُوا فِي الْحَرْبِ آيَةَ ثَغْرَهُ
وَالِدٍ بَلِّ سَلِيلٍ أَشْرَفَ أَسْرَهُ
«فِيصِلِ» وَكَفَاهُ صَيْتًا وَشَهْرَهُ
أَغْضَبُوهُ وَاسْتَنْفَدُوا مِنْهُ صَبْرَهُ
غَارَ جَهْرًا وَلَا تُبَارِي هِزْبَرَهُ
سَارَ شَرْقَ الْأَرْدُنِّ يَحْمِي عِبْرَهُ

^٢ هَلَاكُهُ.

^٣ مَاتَ جَوْعًا.

^٤ الْجُوعُ.

^٥ كُلُّ مَنْ «سَنَاهُ» وَ«فِكْرَهُ» بَدَلَ بَعْضٍ؛ أَيِ يَسْبِقُ سَنَا الْبَرْقِ وَفِكْرَ الْمَرْءِ.

^٦ الظَّالِمُ.

^٧ اسْمُهُ؛ أَيِ فِيصِلُ، وَهُوَ مِنْ أَسْمَاءِ السَّيْفِ.

زاحفًا عن يمين جيش «الأنبي» وهو يقفون في الفتح والضم إثره

* * *

سهلَ ذاك القفرِ السحيقِ ووَعَرَهُ
جاعلاً عذره عن الفرِّ ذُعرَهُ
هم أتمُّوا كسر العدوِّ وقهرَهُ
ان طرّاً وقاهم الله غدرَهُ
لُسْنُهُم في اعترافها مستمرّة
شرقنا ذكره ويُعلي قَدْرَهُ
م عليه تثني وتُعلن شُكْرَهُ
مدحها والنسيم يسرقُ نشرَهُ
أَمّةٌ عنده فصارت حُرّة
فكفها محرورها منه شرّهُ
كيدهُ فانثنى مُصيّباً نحرَهُ
ما تغنّت به الملائك مرّة
ض سلامٌ وفي الأنام مسرّة»

وكلا الجحفلين أوغلَ يَفْري
والعدو المذعور يهربُ منهم
وبشهر ونصف شهر رأينا
والقرى والضياع والمدن والسك
وبمنّ الباري وفضل «الأنبي»
ذلك القائد الذي سوف يُحيي
وفلسطين مع شقيقتها الشا
وإلى الأحلاف الأمجد تطوي
أنقذوها من ظالم هي كانت
ظالم شرّهُ بها كاد يُودي
خلّصوها منه وردّوا إليه
وأعادت وساكنوها مراراً
«في الأعالي لله حمدٌ وفي الأر

تاريخ

في الشرق رنّ إلى أقاصي المغرب
وتنصّنت لصداه أذن الكوكب
هيجاً ويَزحمُ مجدها بالمنكب
ودمشقُ ترقمُ بحرف مُذهّب
نوراً يُلاشي منه أثر الغيّه
تُجري لها الشهباء^٨ أفخم موكب

تحرير سورية على يد «الأنبي»
فتحُ تغنّته ملائكة السما
فتح يطاول أكبر النصرات في الـ
فالقُدس تُمليه على ما حولها
ويشعُّه لبنان في أرجائه
وتذيعه دار الصفاء^٩ بشارّة

* * *

^٨ بيروت.

^٩ حلب.

بشراكِ سورِيَّةُ العزِيْزةُ فافرحي
فاللهُ سؤْلِكِ قد أجاب فبالغي
فلقد أنالِكِ ما طلبتِ وإنه
وعلى الألى نَجَّوكِ آياتِ الثنا
إنِّي لِمُنْقِذِكِ العَظِيمِ لَشَاكِرٌ
ولقارئِ شعري المؤرَّخِ واصفٌ

وتهلَّلي بخلاصِ شعبِكِ واطربي
ما شئتِ في حمْدِ الإلهِ وأطنبي
من كلِّ وجهٍ كان أصعبَ مطلبِ
صوغي وعن قَدْرِ الصَّنِيعَةِ أعربي
وبنصره هذا لأَكْبِرُ مُعْجَبٌ
تحرير سورِيَّةٍ على يد «الأنبي»

الفصل الرابع والثلاثون

هجوم الحلفاء الأخير في البلقان

وتسليم بلغاريا وتركيا والنمسا

في أوائل شهر أكتوبر سنة ١٩١٥ نزل جيش فرنسوي وبريطاني في سلانيك، وزحف شمالاً للاتصال بالجيش السربي ومساعدته على ردّ غارة الجيوش البلغارية والنمساوية والألمانية والتركية التي تآلّبت عليه، ولكنه إذ لم يتمكّن من ذلك عاد أدراجه إلى سلانيك، حيث انضمّت إليه نجدات إيطالية وروسية، وأخذ يُعنى بنقل فلول الجيش السربي من كورفو إلى سلانيك، ويجدّ في إعادة تنظيمه وتسليحه وإعداده إلى حين الحاجة، وما لبث أن تقدّم شمالاً واستولى على موناستير وما حولها.

وكانت حكومة اليونان قد وعدت الحلفاء بلسان كبير وزرائها فنزيلوس أن تشدّ أزرهم في الغارة على غاليبولي، فعارَضَ ملكها قسطنطين في ذلك واضطّرّ وزيره إلى الاستعفاء، ثمّ مثلّ هذه الرواية عينها يوم دخول بلغاريا في الحرب مع ألمانيا، فخذل حليفته السرب ونكث بعهد حكومته لها، واضطر فنزيلوس إلى استقالة منصبه مرة ثانية. وفي ٢٦ سبتمبر سنة ١٩١٦ غادر فنزيلوس أثينا ومعه بعض كبار القوَّاد والضُّباط والأعوان إلى كريت وغيرها من الجزر اليونانية. ومن ذلك الحين تألّفت لجنة الدفاع الوطني، وجاهرت بانفصالها عن حكومة الملك في أثينا، وأخذت هذه النهضة تمتدّ في الجزر وسلانيك، حيث ألقى فنزيلوس وأعوانه عصا ترحالهم، ثمّ امتدّت إلى الأسطول، وانحازت بعض بوارجه إلى أسطول الحلفاء، وأخذ جيش الدفاع الوطني في سلانيك ينمو ويزيد.

وكانت حكومة أثينا في هذا الوقت لاهية بتغيير الوزارات، وهي بين يدي الملك كريشة في مهبط الرياح طائفة.

وفي ١٢ أكتوبر سلّمت إلى الحلفاء — بناءً على بلاغ أمير البحر درتيج فورنيه — معظم بوارج أسطولها، وأجابت بعض المطالبات الأخرى، واعترفت دول الحلفاء بالحكومة اليونانية المؤقتة التي أنشأها فنزيلوس في سلانك، وعزّز الحلفاء الحاميات البحرية التي أنزلوها في بيريه وأثينا، وتدرّجوا في التشديد على الملك قسطنطين، ثم طلبوا في ٢٢ نوفمبر إخراج معتمدي ألمانيا وحليفاتها وتسليم عدد كبير من المدافع والبندقيات والقنابل وغيرها من المعدات الحربية.

وفي أول ديسمبر نزلت فصائل من جنود الحلفاء إلى أثينا فانقضّ عليها الجنود، وجرت معركة بين الفريقين، قُتل وجرح فيها من جنود الحلفاء نحو مائتين، واسترجع الأميرال فورنيه الفصائل التي نزلت، واشتدّ اضطهاد حزب الملك في أثينا لأنصار فنزيلوس. وفي ١٢ منه أعلن الحلفاء حصر بلاد اليونان، وأرسلوا بلاغاً نهائياً إلى حكومتها طالبين إخراج جيشها من تساليا، ونقل جانب منه إلى المورة، وتسليمهم إدارة سكة الحديد والتلغراف والبريد؛ فأجابت طلبهم.

وفي ١١ يونيو سنة ١٩١٧ تعيّن المسيو جوناو مندوباً سامياً لدول الحلفاء في بلاد اليونان، فأبلغ حكومتها وجوب تنازل الملك قسطنطين لمن شاء من بنيّه ما عدا وليّ العهد، فتنازل لابنه الثاني الأمير إسكندر، وبرح أثينا في ١٥ منه إلى سويسرة؛ فرُفع الحصار البحري، واستؤنفّت الملاحة، وعادت الأمور إلى مجاريها. وفي ٢٨ منه ألّف فنزيلوس الوزارة وتقلّد رأستها وزارة الحربية، وفي ٢٩ منه قطعت اليونان علاقاتها مع ألمانيا وحلفائها، واستدعت مندوبيها من عواصم بلدانهم، وفي ١٠ يوليو رجع المسيو جوناو إلى فرنسا.

كان جيش الحلفاء في البلقان قد استوفى حاجته من العدد والعدد، وانضمّ إليه جانب من الجيش اليوناني، وأسندت قيادته العليا إلى الجنرال فرنشه دسبري خلف الجنرال سرايل، فشرع في هجومه الأخير يوم ١٨ سبتمبر — أي يوم شروع الجنرال أللنبي في تحرير سورية — وأخذ يدفع أمامه صفوف البلغار والبلغاريين والنمساويين والألمانيين شمالاً وشرقاً وغرباً، واستردّ مكدونية الشرقية ومعظم بلاد السرب، واجتازت طلائع الحلفاء حدود بلغاريا، وحينئذ لم تر حكومتها بدياً من التسليم، فألقت سلاحها وسلّمت بلا شرط ولا قيد، وأمضيت الهدنة معها في ٣٠ سبتمبر، وحذت تركيا حذوها فسَلّمت تسليمها، وأمضيت معها الهدنة في ٣١ أكتوبر.

ثمَّ واصل الجيش الفاتح تقدُّمه شمالًا وغربًا، وهو يطارد فِرَق النمساويين والألمانين ويمزِّق شملها، وقد قطعت طلائع السربيين مائة وستين كيلومترًا في ٨ أيام، وفي ٣ نوفمبر دخل الجيش السربي بلغراد.

وفي ١٤ أكتوبر استأنف الإيطاليون هجومهم بمؤازرة الفرنسيين والبريطانيين، وأخذوا يكرُّون على النمساويين ويُجلُّونهم عن الحصون والمواقع، فأخرجوهم من إيطاليا واقتفوا آثارهم في أرض النمسا، واحتلُّوا تريستا وترنت وأوديني وغيرها، وأسروا منهم نحو أربعمئة ألف أسير، وغنموا نحو ستة آلاف مدفع ميدان.

وحينئذٍ رأت حكومة النمسا أنَّ بناء إمبراطوريتها الضخم يتداعى وينهار، وعقدت اتِّحاد ولاياتها أخذ في الانفراط والانتثار، ولم يَبْقَ لها أقلُّ أمل بما علَّقت به نفسها من الفوز والانتصار؛ فسَلِّمت تسليم بلغاريا وتركيا بلا شرط ولا قيد، وأمضيت معها الهدنة يوم ٣ نوفمبر.

ومن غريب الاتفاق أنَّ هذه الحرب انتهت من حيث ابتدأت، فمن البلقان امتدَّت وانتشرت، ومن البلقان أخذت ريحُها في الركود، ونارُها في الخمود.

وَذَكَتْ فَعَمَّتْ سَائِرِ الْبُلْدَانِ
فَشُبُّوبُهَا وَخَمْوُهَا سَيَّانِ
عَجَلٍ وَلَمْ تَشْتَدَّ فِي الثُّورَانِ
خَمْسِينَ شَهْرًا فَوْقَهَا شَهْرَانِ
يَكُ صَرْفُ هَذَا الْمَنْعِ فِي الْإِمْكَانِ
مَنْضَمَّةً مَعَهُمْ إِلَى الْأَلْمَانِ
وَتَأَهَّبَتْ لِلْكَرِّ فِي الْمِيدَانِ
عَنْهُ تَجَرُّ ذَلَالٌ الْخِذْلَانِ
يَسْتَنْجِ^٢ مِنْ يَدِهِمْ سَوَى الْيُونَانِ

طَارَتْ شَرَارَتُهَا مِنَ الْبُلْقَانِ
وَقَدْ انْتَهَتْ مِنْهُ كَمَا ابْتَدَأَتْ بِهِ
لَوْلَا تَصَدِّي التُّرْكِ لَانْطَفَأَتْ عَلَى
لَكْنَهَا بِدْخُولِهِمْ بَلِغَتْ مَدَى
مَنْعُوا بِهِ عَنْ رُوسِيَا الْحَلْفَا وَلَمْ
وَجَرَتْ عَلَى آثَارِهِمْ بَلْغَارِيَا
وَلِنْصَرَةِ الْحَلْفَا انْبَرَتْ رُومَانِيَا
لَكْنَهَا مَا أَبْطَأَتْ أَنَّ أَحْجَمَتْ
وَاسْتَأَثَرَ الْأَلْمَانُ بِالْبُلْقَانِ لَمْ

* * *

^١ ذيول.

^٢ ينج.

في الظَّاهِرِ التَّزَمُوا الحَيَاةَ ومِثْلُهُمْ
لَوْ أَنَّهُمْ مُنَحُوا الخِيَارَ لجَاهَرُوا
لكنَّهُم وبلادهم في قبضة الـ
وَجَرُّوا عليها منذُ شهرِ الحربِ لم
يترسَّمون خُطى المَلِكِ كَأَنَّمَا
فجنى عليهم أن طحا بقلوبهم
والنَّاسُ في الدنيا كما قالوا على

* * *

بإشارة ابن حميه طاح بشعبه
ونسوا يد الحلفاء على اليونان والـ
لولا وزيرهم الحكيم لأَوْغَلُوا
«فنزيلس» الرجل الذي لبلاده
كم واحد في الناس يسوى أُمَّةً
وكفى بني اليونان فخراً أنه
متفردٌ بنزاهةٍ وعزيمةٍ
وبحبه لبلاده شَغِفٌ وللـ

* * *

لو أَنَّ «قسطنطين» راعى عهده
لم ينشبِ البلغار مِخْلَبَ غَدْرِهِمْ
لكنه عنها تخَلَّفَ وهي في
وبرأي مُرْشده استخفَّ محذراً
وله انبرى في الدردنيل معارضاً
ونهاه عمَّا رامَ يومَ غلبُلي

للسربِ يومَ كريهةٍ وطعانٍ
فيها ولم تصلَ لظى العدوانِ
برحائها جَهْدًا البلاءِ تعاني
إياه شرَّ مَغَبَّةِ العصيانِ
فيما أرادَ فكان عنه الثاني^٣
فَنَأَى عن الحلفاء نصرُ دانٍ

^٣ الحالة التي يُختار عليها الموت.

^٤ مِنْ «ثنى» بمعنى كَفَّ أو رَدَّ.

قَصُرُوا عَلَيْهِ السَّعْيَ فِي الْبَلْقَانِ
وَطِئُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ بِأَمَانٍ
أَمْثَالَهُ مِنْ صَاحِبِي التَّيْجَانِ
قَدْ كَانَ حَتَّى الْآنَ أَكْبَرَ عَانٍ
مِنْ مَجْلَسِ الْحَلْفَاءِ الْعَظِيمِ الشَّانِ
وَتَبَرَّاتٍ مِنْ تَهْمَةِ الشَّنَّانِ^٥
خَوْضِ الْوَعْيِ الْمَشْبُوبَةِ الْنِيرَانِ

لَمْ يَأُلْ جَهْدًا أَنْ يُعْرِقِلَ كُلَّ مَا
وَعَلَى جُنُودِهِمْ اعْتَدَى إِذْ دَارَهُ
حَتَّى أَتَوْهُ بِغَيْرِ مَا يُؤْتَى بِهِ
وَارْتَدَّ عَنْهُ وَزِيرُهُ وَلَأْمَرِهِ
وَبَخْلَعِهِ صَدَرَ الْقَرَارُ مَوْقَعًا
وَأُقِيلَتِ الْيُونَانُ عَثْرَتَهَا بِهِ
وَجُنُودُهَا انْضَمَّتْ إِلَى الْحَلْفَاءِ فِي

* * *

مِنْ نَخْبَةِ الْبُسْلَاءِ وَالشَّجْعَانِ
جَلَّى بِحَنْكَتِهِ عَلَى الْأَقْرَانِ
بَلْغَارِ أَتْخَنَ أَيَّمَا إِتْخَانِ
فِي الْكُرِّ يَنْقُضُونَ كَالْعُقْبَانِ
كَالْأَسَدِ وَاثْبَةً عَلَى الْقُطْعَانِ
وَتَشْتَتُّوا فِي الْبَيْدِ وَالْقِيعَانِ
خَرُّوا لَدَى الْحَلْفَاءِ إِلَى الْأَذْقَانِ
هَالَ الْقُلُوبِ وَطَاحَ بِالْأَذْهَانِ
إِلَّا تَدَاعَتْ سَائِرُ الْأَرْكَانِ
وَتَقَفَّتِ النَّمَسَا بَنِي عُثْمَانَ
فِي عِزْلَةٍ الْمَجْذُومِ وَالْجَرَبَانِ
وَالْيَوْمَ قَدْ أَمَسَتْ بِلَا أَعْوَانِ
فَرِيقٌ بَيْنَ الْهَامِ وَالْأَبْدَانِ
هَوْلًا يُشَيِّبُ مَفَارِقَ الْوِلْدَانِ
سَلِيمٍ لِلْحَلْفَاءِ وَالْإِذْعَانِ

وَاعْتَدَّ لِلْحَلْفَاءِ ثَمَّ جَحَافِلُ
وَلَوْ أَعْلَمَهَا «دَسْبَرِي» الْبَطْلُ الَّذِي
فَسَطَا وَصَالَ عَلَى بَنِي النَّمَسَا وَفِي الْـ
وَعَلَى جَنَاحِيهِمْ ضِرَاعُ سَرِبِيَا
وَعَلَى فُلُولِ بَنِي فِينَا وَصُوفِيَا
نَثَرُوا عَقُودَ جَمُوعِهِمْ فَتَفَرَّقُوا
فَعَنَتْ لَهُمْ بَلْغَارِيَا وَرَجَالُهَا
وَتَضَعُضُ الْبَلْغَارُ فِي أَلْمَانِيَا
لَمْ يَهْوِ هَذَا الرِّكْنُ مِنْ بَنِيَانِهَا
وَالْتَرَكْ دَانُوا وَاحْتَدَّوْا بَلْغَارِيَا
وَتَلَفَّتَتْ أَلْمَانِيَا فَإِذَا بِهَا
بِالْأَمْسِ كَانَتْ حَوْلَهَا أَعْوَانُهَا
وَلِيُوْثُ «فُوش» مَثِيرَةٌ فِي جَيْشِهَا التَّـ
تَحْتُثُّ فِي تَمْزِيْقِهِمْ وَتَذِيْقِهِمْ
وَعَلَيْهِ لَمْ تَرَ عِنْدَهَا بُدًّا مِنَ التَّـ

* * *

^٥ البغض المختلط بعداوة.

تاريخ الحرب الكبرى شعراً

لا يستطيع العقلُ أن يتصوّر الشـ رَّ الذي جلبتْ على العمرانِ
لكنّها لِقِيَتْ جزا إيغالها في البغي والعدوان والطغيانِ
فَقَضَتْ وقد صدّق الألى قالوا على الـ بباغي تدور دوائر الحدثانِ

الفصل الخامس والثلاثون

هجوم الحلفاء الأخير في فرنسا ونهاية الحرب

بعدما بلغ المرشال فوش غايته من التراجع أمام الألمان مدة نحو أربعة أشهر، وأوهمهم نفاذ احتياطيه، فأسرفوا في التهور والاندفاع، وحملهم في أثناء ذلك خسارة مئات الألوف من نخبة رجالهم، وفرغ من اتخاذ الأهبة الكاملة للهجوم؛ أصدر أمره به، فكرّ الفرنسيون في ١٨ يوليو سنة ١٩١٨ على الألمان بين نهريّ الأين والمارن، فكان ذلك فاتحة هجوم أخذ يكبر ويتسع شيئاً فشيئاً حتى عمّ الميدان الفرنسي كله، واشترك فيه الجيش البلجيكي بقيادة الملك ألبر، والجيوش الفرنسية التي تحت قيادة المرشال بتاين العامة وقوادها فايول ومنجان ودجوت وأمبين ودبنيه وغورو وبرتلو وجيوما، والجيوش البريطانية التي تحت قيادة المرشال دوجلاس هايج العامة وقوادها بنج وروبسن وبلومر وهورن وكري ويردود وغيرهم، والجيوش الأميركية بقيادة الجنرال برشنغ. هذه الجيوش كلها انطبقت على العدو المهاجم من الشمال والغرب والجنوب، وطفقت تنقض عليه انقضاض الصواعق، وتباغته بضرب متوال متلاحق، وتضطره إلى النكوص على أعقابه والجلء عن جميع المدن والحصون التي احتلها في فرنسا والبلجيك. وعلى هذا المنوال كان الألمان يرتدون متقهقرين، وجيوش الحلفاء تطاردهم وتجذ السير وراءهم، وهي تجتاز الأنهر والترع والقني، وتك الماقل والحصون، وتدمر الخنادق والمتاريس، ودباباتهم تكتسح الحزون والسهول، وطياراتهم تكافح الطيارات الألمانية وتقتنصها بالآحاد والعشرات، وتمطر الجيوش المنهزمة وابلًا من القنابل والقذائف، فتزيدها ارتباكًا واضطرابًا.

وفي أقلّ من أربعة أشهر انتزعوا من الألمان كلّ ما احتلّوه في فرنسا والبلجيك تقريباً، وأَسَرُوا منهم نحو نصف مليون، وغنموا نحو أربعة آلاف مدفع ميدان، وعشرات الألوف من المدافع السريعة، وما لا يُحصى من الأسلحة والعُدَد الأخرى، واضطروهم أن يَحْدُوا حَدَّوْ البلغار والأتراك والنمساويين، ويسلّموا تسليم المكسور للظافر المنصور. ولما عُرِضَتْ عليهم شروط الهدنة الباهظة الثقيلة قَبِلُوها ووَقَّعُوها يوم ١١ نوفمبر^١ سنة ١٩١٨.

ليومك نهر «المارن» ذكرٌ مَخْلُدٌ تمر الليالي والحوادث تنقضي وكلُّ لسانٍ في البرية ناطق وعن راجهم يُغني الندامى فكلما ويُغني عن الأعياد مَنْ يرقبونها وشهرته فينا على قرب عهده فدُرِّيئُها في كلّ جَوٍّ ملألئٍ وموضوعها محمول أم الجلال والـ وأعظم ما نفس الفتى باقتنائه	يظلُّ على طول المدى يتجدّد وفي كلّ يومٍ ذكرٌ يومك يُولّد به وصداه كلّ وادٍ مرَدّد أرادوا انتشاءً^٢ كرّوه فعربدوا فأَيَّانَ أجروا ذكرَ يومك عيّدوا نرى أنها من شهرة الشمس أبعد وقَمَرِيَّها في كل غصنٍ مغرّد جمال وأسمى ما يراؤُ ويَقْصَدُ تعزُّ وإن يُفقد فإيَّاهُ تنشدُ
--	---

* * *

عنيّتُ به حُرَيَّةُ الأمم التي وأنصارها الأحرار هم سادة الورى فهم رفعوا في الخافقين منارها ولكنما الألمان أعداؤها فهم	لها الحرُّ بعد الله يجثو ويسجدُ ومَنْ تتخذه عبدها فهو سيّدُ وهم عرشها فوق السّماكِين شيّدوا على رغمها في الأرض عاثوا وأفسدوا
--	---

^١ وأمضيتْ معاهدة الصلح بين الحلفاء والألمان في مدينة فرساي الساعة الرابعة بعد ظهر اليوم الثامن والعشرين من شهر يونيو سنة ١٩١٩؛ أي بعد خمس سنوات كاملة من يوم مقتل الأرشيدوق فرنز فرديناند ولي عهد النمسا والمجر وقرينته. أمّا الحرب نفسها بين الحلفاء وألمانيا، فقد دامت أربع سنوات وثلاثة أشهر وعشرة أيام وإحدى عشر ساعة.

^٢ سكرًا.

تصدّوا لإزهاق الألى علموا بها
طغوا وبغوا والله لم يتّقوه بل
وزين الاستبداد بالناس كلهم
إلى الفتح لم ينفك منذ جلوسه
به كان يُغري شعبه ويحضهم

وإرهاق من مالوا إليها تعمّدوا
عليه عصوا واستكبروا وتمردوا
لهم ملك أتباعه متعبّد
على العرش يصبو والسلام يهدّد
عليه ويذكّي عزمهم ويشدّد

* * *

أطاعوا له بالحرب أمراً وإذ دعا
قضوا نصف قرن في تأهّبهم لها
وما تقتضيه من سلاح وميرة
وفي نارها زجوا جميع بني الورى
وفي أول الأمر احتفت بهم الوغى
وجازوا ضفاف المارن في غزواتهم
ولكن عليهم «جوفر» كرمجرأ
وخطت على المارن البسالة آية

على الفور لبّوه ولم يتردّدوا
فجدّوا وشدّوا واستمدّوا واعتدوا
ومال أعدوا والملايين جنّدوا
فأصبحت الدنيا جحيماً توقّد
ولاح لهم من جانب النصر فرقد
وباريس بالفتح القريب توعدّوا
فريعوا وعن باريس صُدّوا وأبعدوا
تقول لغازيه: «هنا جوفر يرصد»

* * *

ولما تخلى الروس عن حلفائهم
خلا الجو للألمان فاندفعوا على
وكرّوا على الجيش المدافع كرهة
وأُمّوا ضفاف المارن ثاني مرّة
نسوا أو تناسوا يوم «جوفر» انبرى لهم
وقد وردّوه يحسبون مياهُه
ولكنهم خابوا رجاء وموردًا

وطاب لهم في مضجع الذلّ مرقد
فرنسا وجدّوا في الهجوم وشدّوا
أقاموا لها الدنيا اضطراباً وأقعدوا
وسهم فتوح نحو باريس سدّدوا
يزودّ عن المارن الغزاة ويطرّد
حجّيلاء حرّ الهاجمين تُبرّد
حرّورا من الغسلين والمهل أُوردوا

* * *

أجل لم يلاقوا جوفر لكنهم لقوا
رأوا «فوش» في عريسه متحفّزاً
رأوا معشر الأحلاف أمّضوا وفاقهم

له خلفاً من بطشه الأرض ترعد
يُصوّب في تزاره ويُصعّد
على كلّ شيء والقيادة وحّدوا

وقد قَلَدوها فوش فهو عُدِيْقُها الـ
وقَفَّى على التقليد «هايج» بأنَّه
وبايَعه الباِقون منهم وأجمعوا

* * *

وحينئذٍ كانوا استعدُّوا وأَعْتَدُوا
وكانوا دماءً «البوش» يستنزفونها
تخلَّوْا لهم عن كلِّ شرٍّ بملئه
كقطِّ حَلا جهلاً له لحسٌ مبرِّرٍ
وقد أوهموهم أنهم عن لقاءهم
وأنَّ الخميس الاحتياطيَّ عندهم
فرانت على الألمان هذي الخديعة الـ
وقالوا عِدانا نابهم شرُّ كسرةٍ
وظنُّوا بأنَّ النصر نيلٌ وأنهم
وكانوا لخط الزحف في الطول أسرفوا
وضرغامة الأرجون^٦ في ريمس رابضٌ

* * *

فأملَى على قَوَّاده «فوش» خطة الـ
وصاحَ بهم رُدُّوا الغُزاة وأطَبَّقوا
ومن ضفة المارن ابدءوا الكرَّ واقذفوا
فلبَّي النداء أبناء كولمبس^٨ الألى

^٣ يُقال: هو جُدَيْلُها المُحَكَّك وعُدِيْقُها المُرَجَّب؛ أي صاحبها الخليق بها.

^٤ الفرس الكريم.

^٥ السابق من الخيل يُقَلَّد شيئاً ليعرف به.

^٦ الجنرال غورو الشهير.

^٧ يُدَفَّنوا أحياء، والوَأْد في الأصل لدفن البنت حية.

^٨ الجيش الأميركي.

أولئك بالألمان ثاروا ونكّلوا
وما أبطأت باقي الجيوش أن اقتفت
ودارت رحاها وهي كالنار تلتظي
وشملهم المجموع شتوا وشردوا
خطاهم وفيهم عمّ للحرب مشهد
وساحاتها كالبحر تُرغي وتُزبد

* * *

هناك على الألمان صال جحافل الـ
وشنوا عليهم غارةً دحضوا بها
وردوهم يهوون في شرٍّ ورطية
وزجوا إليهم ضربةً لو دويها
دحوها عليهم من مدافع جمرها
ومن زاحفات في الصعيد كأنها الصـ
تقطع أسلاك الحصون وتنسف الـ
ومن سابحات في الهواء تشقه
وتمطرهم منه بسيل كراتها
وكلّ مجلّ طارٍ في السبق صيته
وكلّ مصلٍّ لو أصابت مُهندًا
وكلّ مُغيرٍ خلفه أسد الشرى

حليفين صولاً فيه غاروا وأنجدوا
مزاعمهم فيما ارتأوه وفندوا
يساورهم غمٌ لهم متغمّد
عرا جليماً لاندقّ وانفتّ جليماً
إذا مسّ بحرًا رده يتوقّد
وواعق قبل الفتك تسنو وترعد
خنادق والوعث الكئود تمهد
وفوق مطار النسر ترقى وتصد
وتضليهم النار التي هم أوقدوا
وصارت إليه سرعة البرق تسند
عزيمته في الكرّ صام المهند
وقدّامه قرمٌ يُجارِيه صندد^٩

* * *

بهم «فوش» نار «البوش» خاض فأطفئوا
ومن يدهم بزوا المدائن والقرى
وقد نثر الإخفاق عقد رجائهم
وغطت بطاح السوم أشلاء جيشهم
وما ردّ «هندنبرج» عنهم بخطه
ففرّوا على أعقابهم ناكسين عن

لظاها وأنفاس المعادين أحمدا
فشلت ولم تقدر على ردها اليد
وبات عليهم عثير اليأس يُعقد
ومن آمنوا قتلاً وأسراً تبدّدوا
وبالاً عليهم ظلّه هم مدّدوا
بلاي لأهليها أدلّوا وأشهدوا^{١٠}

^٩ التالي من خيل السباق.

^{١٠} الصندد: كالصندي أي الشجاع.

^{١١} اضهدوا.

تُسَلُّ وفي أَقْفِي المطاريد تُغَمِّدُ
بأربعة الأعوام ضَحَّوْا لِيُوجِدُوا
لَكَانَ بِهِمْ حَاقَ الْبَلَاءِ الْمَخْلُدُ
عَنِ الْعَرْشِ مَرْغُومًا يُزَاح وَيُطْرَدُ
مَصِيرُ أَبِيهِ عَكْسَ مَا كَانَ يَعِدُّ
جَرَى الْخَوْفُ مَبِیْضٌ فَحَظُّكَ أَسْوَدُ
فَإِنَّكَ تَدْرِي أَنَّهُ مِنْكَ أَنْكَدُ^{١٢}
تُوَلَّى عَنْهُ مُدْبِرًا وَهُوَ مَقْعَدُ

وخلَفَهُمُ الْجَيْشُ الْمَطَارِدُ بِيَضُهُ
وَفِي ثُلُثِ عَامٍ ضَيَّعُوا مَا بِجَيْشِهِمْ
وَلِلْحَلْفَا دَانُوا وَلَوْ لَمْ يَسْلُمُوا
وَحُمَّ^{١٢} عَلَى السَّفَاحِ «غَلِيُوم» أَنَّهُ
وَأَلْفَى وَلِيَّ الْعَهْدِ أَنَّ مَصِيرَهُ
وَإِنْ يَكُ لَوْدَنْدَرْفِ شَعْرِكَ وَهُوَ مَنْ
وَمَا حَظُّ «هَنْدَنْبِرْج» فِي السَّوَاءِ دُونَهُ
كَفَاهُ شَقَاءً أَنْ يَرَاكَ اسْتَطَعْتَ أَنْ

* * *

فَحَقُّكَ فِيهِ ظَاهِرٌ لَيْسَ يُجْحَدُ
سَيُحْفَظُ بَيْنَ النَّاسِ ذِكْرُ مُؤَبَّدُ
مِنَ الْأَرْضِ رَهْصَ الْبَطْلِ وَالْحَقِّ وَطَّدُوا
عَلَى الْحَلْفَا نُثْنِي وَلِلَّهِ نَحْمَدُ
بِهَا ذَكَرَ مَاضِيَهُمْ أَعَادُوا وَجَدَّدُوا
«بَرِيْطَانِيَا الْعَظْمَى» اعْتَزَّازُ وَسُودُّ
تُعَظَّمُ مِنْ كُلِّ الْوَرَى وَتُمَجِّدُ
وَحَزَتْ ائْتِصَارًا فِيهِ جَرَحِكِ يُضْمَدُ
فَرَدَّ لَهُمْ أَضْعَافَ كَيْدِهِمْ الْغَدُ
وَمَنْ يَزْرِعِ الْعَدَوَانَ فَالْشَّرُّ يَحْصَدُ

فَتَهُ أَيُّهَا النَّهْرُ الْمَعْظَمُ وَافْتَخِرْ
وَيَوْمَكَ لَا نَنْسَاهُ فِي الْحَرْبِ بَلْ لَهُ
بِهِ الْحَلْفَا وَالشُّكْرُ لِلَّهِ قَوَّضُوا
بِهِ الْحَلْفَا حَازُوا ائْتِصَارًا لِأَجَلِهِ
فَخَطَّ «الْفَرَنْسِيُّونَ» لِلْمَجْدِ صَفْحَةً
وَمِنْ جَيْشِهَا الْغَازِي وَأَسْطَوَلَهَا لَهَا
وَفِي فَضْلِهَا الْجَمُّ الْعَمِيمُ «أَمِيرْكَا»
وَقَدْ نَلَتْ «يَا بَلْجِيكُ» مَا تَبْتَغِيهِ
فَلِلْحَلْفَا الْأَلْمَانُ كَادُوا بِيَوْمِهِمْ
وَبِالْعَدْلِ وَالْإِنْصَافِ نَالُوا جَزَاءَهُمْ

^{١٢} قُضِيَ.

^{١٣} أَيَّ أَنْكَدَ مِنْكَ حَظًّا.

الخاتمة في نهاية الحرب

خَبَتْ وَكُفِينَا مِنْ تَسْعُهَا الشَّرَّ
نَكَتْ وَلَظَاهَا أَحْرَقَ الْبَرَّ وَالْبَحْرَا
وَسَجَلَتْ الدُّنْيَا عَلَى الْمَعْتَدِي الْوُزْرَا
وَكَانَ عَلَيْهِ ظِلُّهَا بِاسْطًا سِتْرَا
وَكُنَّا ظَنَنَّا أَنَّهُ عَدَمَ الْفَجْرَا
وَشَهْرًا وَكُنَّا الْيَوْمَ نَحْسِبُهُ شَهْرَا
مَجَاعَةٍ بَلْ كُنَّا نَرَى عَامَهَا دَهْرَا
لَيْسْتَنْفَذُ الْأَقْلَامَ وَالصَّحْفَ وَالْحَبْرَا
فَلَسْتُ بِمَسْتَحِلٍّ إِعَادَةٍ مَا مَرَّا
شَعُورًا بَدَا لِي أَنَّ أُمْتُ لَهُ شِعْرَا
وَلَبَّيْتُهَا لَمْ أَعْصِ فِيهِ لَهَا أَمْرَا
تِي اجْتَرَأْتُ بِاللُّبِّ لَمْ تَحْتَوِ الْقِشْرَا
عَلَى مَا اسْتَحَقَّ الطَّبْعَ وَاسْتَأْهَلَ النُّشْرَا
بِذِكْرِ النِّجَا^٢ مِنْهَا وَتُخْتَمَ بِالْبَشْرَى
عَلَى طَيْبِهِ تَسْمُو وَتَفْضُلُهُ نَشْرَا

أَلَا فَابْشُرُوا يَا قَوْمِ إِنَّ الْوَغَى الْكُبْرَى
خَبَتْ نَارُهَا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ بَعْدَمَا
وَقَدْ وَضَعْتُ أَوْزَارَهَا بَعْدَمَا طَغَتْ
تَقَلَّصَ عَنْ وَجْهِ الْبَسِيطَةِ ظِلُّهَا
وَبَعْدَ تَمَادِي^١ لَيْلِهَا لَاحَ فَجْرُهُ
قَضَيْنَا بِهَا خَمْسِينَ شَهْرًا نَعْدُهَا
وَكُنَّا نَعِدُ الشَّهْرَ أَطْوَلَ مِنْ سَنِي الْ-
وَفِيهَا أَصَابَ الْكُوفَ مَا إِنَّ وَصْفَهُ
وَقَدْ مَرَّ إِلْمَامِي بِهِ غَيْرَ مَرَّةٍ
شَعَرْتُ بِمَا قَاسَى الْوَرَى مِنْ شَرُورِهَا
أَجَبْتُ بِهِ نَفْسِي عَلَى الْفَوْرِ إِذْ دَعْتُ
وَأُودَعْتُ وَصَفَ الْحَرْبِ هَذِي الْقَصَائِدَ الْ-
وَأَعَدَدْتُهَا لِلطَّبْعِ لَمَّا أَنْ انْطَوَتْ
وَقَدْ بُدِئَتْ بِالْحَرْبِ وَالْآنَ تَنْتَهِي
بِبَشْرَى رَأَاهَا الْمَسْكُ إِذْ ضَاعَ نَشْرُهَا

^١ طول.

^٢ النجاة.

لكانت بأعلى مهجة في الورى تُشْرِى
وَألمانيا عَضَّتْ أَنامِلَها العَشِرا
وطالت عَراها القصر بل كسرت كسرا
بربح نراه اليوم مُشْتَكِيًا خُسْرا
على الناس طُرًّا زال واستمتعوا اليُسْرا
وكل امرئ في الخافقين بها سُرًّا
تكرَّرَ إذ لم يبقَ موضوعها سِرًّا
بأذهانهم فعلَ الرحيق أي السُكْرا
وجاءوا بما أَعيا تصوُّره الفِكْرا
جميع القرى والمدن حافلة تترى
مسرَّتْهم إلا أَتَوْا ذلك الأَمْرا
حدود المسرَّاتِ التَّمَسُّنا لهم عذرا
لهم أبشروا قد أَحَرَزَ الحلفا النصرا
بموفٍ ولو أَني قضيتُ به العُمْرا
خلاصتها طابت! وكم ناظرٍ قَرًّا!
وكم أبهجت قلبًا! وكم شرحت صدرا!
لخالقهم من أَجلها الحمد والشكرا!
وقد عمَّ حتى ما استطاعوا له حصرا
عليهم وأحيَوْا بالرِّثاءِ لهم ذِكْرا

ولو أَنها بِيَعَتْ وأُرْخِصَ سِغْرُها
خلاصتها أَنَّ الوَغَى قُلَّ نَعْشُها^٣
وَأَنَّ يَدَ البغي التي امتدَّ شَرُّها
وَأَنَّ الذي بالأَمْسِ علَّلَ نَفْسُها
وَذِيالك العُسْرَ الذي اشتدَّ ضَغْطُها
فيا حُسْنُها بشرى ملا الأَرْضَ بشرها
أُذِيعَتْ وفي الأفواه جهراً حديثها
وَلَمَّا تهاداها الورى كان فعلها
فضَّبُوا بأصوات الهتاف وعربدوا
أقاموا لها الزِينات والندوات في
ولم يدعوا أَمْرًا به يُعَرِّبون عن
وإنْ هُمْ في بعض الأمور تجاوزوا
كفى الناس عُدْرًا فيه قولٌ مبشِّر
فتلكم بشرى لستُ وَصَفَ جمالها
ولله كم نفس بها يومَ أُعْلِنْتَ
وكم شَنَّفْتَ أذنًا! وكم برَّدت حَشَى!
وكم بسط الناس الأكفَّ وقَدَّمُوا
وبالحلفا خُصُّوا جميلَ ثنائهم
وَأَمَّا ملايين الضحايا فَرَحَّمُوا

* * *

فلم يبقَ مَنْ لم يشكَّ مِنْ نارها حَرًّا
وَرُبَّ مفيدٍ نافعٍ يُعَقِّبُ الضُّرًّا
مجالسهم واستأصَلُوا للوغى الجذرا
تُحال على جمعية الأمم الكبرى

مصائبُ هذي الحرب عمَّتْ بني الورى
ولكنه قد يُنتج الخيرَ شَرُّها
فإنْ تَمَّ ما يسعى له الحلفاء في
وصارتُ كبار المشكلات بأسرها

^٣ أي انتهت.

ولم يَبْقَ خوفٌ من شعوبٍ كبيرةٍ
ولم يُهْزَمِ الشعبُ الضعيفُ حقوقَه
إذا تَمَّ هذا كُلُّهُ والرجاء أن
محا إثمَ هذي الحربِ عنها ولم تُرَقْ
تجور على الصغرى وتحكمها قسرا
وأصبح في الدنيا كما ينبغي حُرًّا
يتمَّ وعمَّ الخيرُ منه الورى طرًّا
دماءُ الملايين التي سُفِكتْ هُدْرًا

